

اعمر رامي

ربيع الإرهاب في الجزائر

... شهادات وحقائق صادمة

عن جرائم DRS

ترجمة إلى اللغة العربية

ن. ب.



Editions Al Halabi

تم العمل على نقله بواسطة

( J A W A D )

إخراج نهائي

عصام سلطان
Essam Sultan

اعمر رامي

**ربيع الإرهاب في الجزائر
... شهادات وحقائق صادمة
عن جرائم DRS**

ترجمة إلى اللغة العربية

ن. ب.



الكتاب : ربيع الإرهاب في الجزائر
... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

المؤلف : اعمار رامي

ترجمة إلى العربية : ن. ب.

الإيداع القانوني : 2022 MO 0392

ردمك : 978-9954-731-34-5

الناشر : منشورات الحلبي - الرباط - المغرب

البريد الإلكتروني : edit.alhalabi@gmail.com

الهاتف : 0537.588.188 - 0677.499.244

الفهرس

- ☐ شكر وتقدير لأهم امرأة في حياتي 5
- ☐ تقديم 7
- ☐ مقدمة 9
- ☐ الفصل الأول: أسطورة مديرية الاستعلامات والأمن 15
- ☐ الفصل الثاني: عرين الشياطين 21
- ☐ الفصل الثالث: عملية اعتقالي 25
- ☐ الفصل الرابع: جلسات التعذيب 29
- الجلسة الأولى 30
- الجلسة الثانية 34
- الجلسة الثالثة 36
- الجلسة الرابعة 39
- الجلسة الخامسة 41
- الجلسة السادسة 46

50	الجلسة السابعة
56	الجلسة الثامنة
65	<input type="checkbox"/> الأمر ب. بلقاسم
73	<input type="checkbox"/> من بربروس إلى لامير
89	<input type="checkbox"/> الفرار من السجن والبطلان المجهولان
105	<input type="checkbox"/> الشلف، سجن تحت الصفر
107	الحياة في ملاحق السجن
114	الحياة في مركز الاعتقال
121	<input type="checkbox"/> نازية أم عنترية
122	الهليكوبتر
123	وحش الأوراس
127	انتقام أفراد الحواجز المزيفة
131	<input type="checkbox"/> فرق الموت
131	الملياني الناجي بأعجوبة
134	الإخوة المزيقون
139	جرائم الأصول
141	رعب شديد
143	قبو فرانكنشتاين
145	<input type="checkbox"/> خاتمة

شكرو وتقدير لأهم امرأة في حياتي

إلى تلك المرأة المميزة التي تبعت زوجها كظله وساندته في لحظات الشقاء إبان الثورة. إلى تلك المرأة الجسورة التي دعمت ابنها طيلة العشرية الدموية وشاركته جميع خطواته. إلى تلك المرأة التي أجابت بخشونة أحد عملاء المخابرات: «إذا كان ابني إرهابيا فهو في جبهة القتال، لديك سلاح مثله تماما، فإن كنت تملك شجاعته فاذهب للبحث عنه».

وأضافت: «في المرة القادمة حين تعود إلى هنا لا تناديني «يما»، فأنا لست أمك بل والدة من جعلت منه عدوا لك».

إلى تلك المرأة التي حمّنتي ونصحتني وأحاطتني برعايتها طيلة حياتي، إلى تلك المرأة التي أحبتني وغفرت زلاتي....

أهدي هذه المذكرات المتواضعة آملا أن تكون رمزا لمساهمتي في انتفاضة الشعب الجزائري الذي يطمح إلى ترسيخ دولة القانون، لن يكون فيها عصر الهيمنة العسكرية سوى انتكاسا عرضيا لا بد من طمسه من الذاكرة.

تلك المرأة هي والدتي التي أدعو الله أن يتغمدها في كنف رحمته ويسكنها فسيح جناته.

تقديم

هذه المذكرات المتواضعة حول جرائم التعذيب المنهج تضم روايات ضحايا ما زالوا على قيد الحياة وتمت كتابتها بأسلوب بسيط وواضح لتكون فرصة لتسليط الضوء على تلك العشرية الدموية التي صنعتها أيادي جنرالات سفاحة.

تلك الفترة السوداء بلحظاتها المأساوية المحفورة في تاريخ هذا الشعب تأبى أن تدخل طيّ النسيان؛ فترفض الرحيل مع كل روح تدب في رفات ضحايا خالد نزار وتوفيق مدين.

مقدمة

إن كنت تتساءل لما أنا لست بريئا ولما لا أحمّد عن رؤيتي السياسية وانحيازي لقادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ؟ فسأجيب ككل مرة وأكرر بكل وضوح وبساطة: أنا رجل حر ومواطن جزائري قائم بذاته، فأنا لست بريئا إذا ما كان ذنبي عصيان ومقاومة وتحدي عملاء نظام غير شرعي انبثق عن انقلاب ينادي لعصاة من الجنرالات، بل حاربت الطغمة العسكرية فخسرت جولة لكنني نجوت وصمدت لأواصل النضال.

أما إذا كان السؤال: كيف كان سيكون موقعي بعد التجربة التي مررت بها أو ما هو موقعي حاليا؟ فأنا لا أشعر بالندم على كل ما فات ولا حتى على قطرة دم أرقتها من جسدي، فلو سنحت لي الفرصة مرة ثانية لبذلت قصارى جهدي دون نقاش، بل أنا على يقين لو أن الصحوة الحالية للحراك كانت موجودة آنذاك لكنا قد توصلنا إلى تغيير جذري حقيقي.

فبالنسبة للجزائر التي تربص بها الأوغاد من مختلف مصالح الأمن والجيش وأحكموا قبضتهم على القضاء لاستخدامه كأداة قمع ضد المواطن البسيط، لا زلت أؤمن أنه من الضروري والأساسي حماية حقوقني بما في ذلك الدفاع عن

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

النفس من أي محاولة اعتداء أو اختطاف أو هجوم في حدود الوسائل المعقولة والمناسبة حسب الحالات التي نواجهها.

كيف كان من المفترض أن يكون سلوكي وأنا محاط بجماعة من الرجال المسلحين المرتدين والملثمين بالأسود وأنا أعلم أن أحد أصدقاء طفولتي قد وُجد مؤخراً على بعد خطوات من منزلي ملقى على الطريق وقد اخترق جسده قضيب حديدي على يد نفس الرجال.

إنه شيء نابع من المنطق الذي لا تفقه منه الطغمة الغاشمة شيئاً.

دون التبرؤ من إخواني في هذه المأساة، الذين أداروا ظهورهم أو الذين يأملون في الحصول على اعتذار ملموس، أو حتى الذين مسحوا الماضي أو أولئك الذين أصبحوا يكتنون مشاعر حب لجنرال عجوز صاحب ماضٍ إجرامي، والبعض الآخر الذي التحق بمحض غريزة قبلية بعصابات العسكر، فإنني أتوجه لهم قائلاً وبشكل واضح وصريح: أنا لم أعترف في أي وقت كان أنه قد تم سجنني دون وجه حق لأنني لم أتخلى عن قناعاتي كرجل أنتمى إلى قبيلة متمردة تعاهد أفرادها على الموت وسلاحهم بين أيديهم لنصرة الحق بما في ذلك الدفاع عن العرض والشرف والمال، فهذا موجود في موروثي وهو شيء لا يمكن محوه أو تغييره.

فعلى الرغم من عدم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ولا نلجأ سوى لما يساعدنا من الأحكام الوضعية، فهل هذا يعطي الحق لمجموعة من الأوغاد لتسلبنا حياتنا وحریتنا وأملاكنا وبناتنا ونساءنا؟!

لا أكتب هذه الكلمات لأهين الأشرار لأنهم قد وُلدوا حثالة، ولا أبحث كذلك عن إعلاء قدر الأخيار لأنهم من سلالة نبيلة لأن الأكيد هو أننا جميعاً من

خلق الرحمن وفي يوم قريب سيأتي وقت الحساب ليظل الأخيار في أعلى المراتب خالدين فيها.

خلال أحد الاستجوابات صرخ في وجهي أحد من جلادي بن عكنون وطاقارين: «كل يوم يموت رجالنا مقابل راتب ودون أي قناعة أخرى، وأنتم تموتون لأجل قناعة تظنون أنها صائبة».

كنت أعلم أنه يقول الحقيقة وذلك كان يواسيني، ففوق تلك الطاولة التي أزهقت بها أرواح المئات من الجزائريين أحسست لحظتها بنوع لا يمكن تفسيره من الخلاص والراحة وصفه ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَتَحَدُّوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة النمل، الآية: 14).

لا أكتب لأولئك الذين يظنون أنفسهم ملّمين بكل شيء، أولئك الذين يستخدمون حججا واهية متعددة الاستخدامات مثل: «كل شيء موثق» وهي عبارة تعز على عبد القادر ذهبي وأحمد شريف، ولا لأولئك الذين كانوا عناصر نشطة أو خاملة، أو الذين شاركوا من قريب أو من بعيد، وبالخصوص لا أكتب للسجناء السابقين ذوي الأصابع الزرقاء.

أنا أتوجه إلى تلك الشريحة من الجزائريين الذين يريدون بصدق سماع قصة رجل كافح وجرب، شاهد وسمع، عاش وذاق كل أصناف المعاناة والوحشية الجسدية والنفسية والاعتداءات الجنسية على يد الآلاف من الملعونين الذين أنجبتهم لسوء الحظ بلادنا الجزائر.

مقدمة

انتباه الناس إلى المهانة والقهر الذي عاشوه خلال سنوات احتجازهم إذا لم يتمكنوا من التحرر بصوت عالٍ من كل الفظائع والقذارات التي عانوا منها.

في الختام أقترح أن يرد أحدهم وبجيب ذلك الضابط البائس من عملاء عبلة (عنتر سابقا) الذي جاءنا في ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول 1992 وهو في حالة ثمالة مزرية ليعترف بكل حزن وأسى بحقيقة هي أكثر إيلا ما مما نحن عليه، لأنها تذكرني بشباب مجهولي النسب أو غير الشرعيين، حيث اعترف بأنه وزملاءه قد تمت تربيتهم وتدريبهم لهدف وحيد وهو حماية النظام الذي أنشأهم وتفويض حماية الشعب والوطن للجيش الوطني.

بكل صراحة لم أستطع تصديق ما سمعته، فكلماته كانت تؤكد الحقائق التي كانت تعاش في عرين الشياطين وهو فيلا مخصصة لهؤلاء الشباب مجهولي النسب أو بدون عائلات والذين سأطرق إليهم بإسهاب في فصل آخر من هذا الكتاب.

رواية لن تحمل في طياتها كل ملامح العشرية الدموية والرحلة الجهنمية بشكل شامل ومفصل لفترة التسعينات، بل ستطرق لمواضيع ذات محتوى يعتقد القارئ الجزائري بمبادئه المتوارثة أنها قد زالت منذ رحيل الجيش الاستعماري، لكن ذلك غير صحيح بتاتا وللأسف يا ابن بلدي العزيز، فالمشاهد البشعة والمروعة التي لا يمكن تحملها ستقلنا دون استخدام آلة للزمن نحو همجية عصور ما قبل التاريخ البعيدة.

في الواقع لم يكن من المعقول أن يحدث كل ذلك العار والوحشية التي لا تُعد ولا تحصى في مراكز التعذيب العسكرية بالجزائر لولا تواطؤ الأحزاب السياسية وبعض الشخصيات بما في ذلك قادة حزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية RCD وحركة مجتمع السلم وحركة النهضة... فالكثير من رجال التشكيلات السياسية وخارجها وقعوا في فخ الطغمة العسكرية بالموافقة على المشاركة في حكومات القمع بدافع الخوف أو القناعة.

هؤلاء الرجال قد أدانوا أنفسهم بأنفسهم لذلك لا حاجة لذكر أسمائهم، والبعض الآخر تم سحقهم من قبل النظام الذي ساهموا في وضعه وهنا أشير بالخصوص إلى الراحل رئيس حركة حماس الذي كان الأول على قائمة المرشحين لقيادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ بعد ساعتين من فكرة إنشاء تشكيل سياسي يضم جميع تيارات الحركات الإسلامية، وأنا أتكلم عن دراية لأنني كنت حاضرا حين ولدت فكرة إنشاء حزب سياسي إسلامي.

ما سوف أرويهِ هو مجموعة من الحقائق والأحداث التي عاشها ورواها معتقلون سابقون إبان فترة الجحيم آملين أن يكون هناك على الأقل شهود يلفتون

الفصل الأول:

أسطورة مديرية الاستعلامات والأمن

لطالما كنّا مفتونين بما يسمى الأمن العسكري أو المخابرات باعتبارنا أمة سيادية، فقد كان هذا الموضوع مذهلا للجميع مما سمح بنسج العديد من الأساطير حوله، غير أنها أساطير تخفي حقائق مرعبة تفوق استيعابنا فكرست نفسي دون تردد خلال شهر رمضان الكريم لأوثق وأدون في كتاب أمثلة عن جرائم تم ارتكابها سنة 1992 على يد رجال الأمن العسكري التي كانت مهمتهم الأساسية هي جعل الجزائر جحيما للجزائريين.

أنا أشعر بارتياح كبير وأنا آخذ هذا القرار لكتابة بضع صفحات أتمنى أن تساهم في إمالة جزء من اللثام عن أسطورة تم حياكتها حول القدرات الخارقة لمصالح الأمن الجزائري بما في ذلك الاستعلامات المعروفة لدينا باسم المخابرات.

تم إنشاء وزارة التسليح والعلاقات العامة خلال ثورة التحرير وجندت قتلة كان دورهم آنذاك التصفية الجسدية لشخصيات قيادية مستهدفة، أما خلفاءهم في بن عكنون ومصالحها التابعة والتي تتمتع بالحصانة المطلقة فيقومون بعمليات

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

تصفية أفراد وجماعات وإبادة قرى بكاملها دون التفريق بين رجل وامرأة أو طفل.

وبما أننا نعرف إلى ما تعود أصول أغلب مجندي عرين المخابرات، كما سنراه لاحقاً، فإن ذلك لا يستثني وجود عوامل وراثية وتأثيرات المحيط التي تدفع إلى استبدال استخدام الذكاء، مثلما يفعل نظراؤهم الغربيين، باستخدام مبدأ الترهيب والترغيب (سياسة العصا والجزرة) ضد شعوبهم وبالتالي يكرسون تكوينهم الحقيقي كعملاء مدربين ويسجلونه بدماء ضحاياهم بممارسة الرقابة والقمع بأقصى وأبشع الأشكال.

تقع بلدة مسقط رأسي على أطراف منطقة القبائل البحرية، وأراد خالق الكون أن تربع قريتنا قمة الجبل لتطل بكل شموخ على البحر وعلى المنحدرات الوعرة والطرق الملتوية التي تمتد على سفوح الجبال مما سمح للقرية بأكملها برجالها ونسائها أن تساهم في الحرب التحريرية الوطنية في الأول من تشرين الثاني من نفس السنة.

لقد عشت سنوات طويلة وأنا أواجه معضلة عويصة وهي كتابة هذه المذكرات حول الأحداث التي تلت كذبة القرن التي حاكها من يصفون أنفسهم بحماة الجمهورية في 11 يناير 1992. في ذلك اليوم الذي تم فيه الإلغاء التعسفي لأول انتخابات حرة في الجزائر المستقلة حيث ارتدى عسكر الجزائر بدلة الذل التي وصمتهم بالعار إلى الأبد.

أنا إنسان نشأ في طبقة اجتماعية متواضعة، ذو قلب رفيف الإحساس ودموع سهلة الجريان لكنني أتميز بطبع عنيد متمرد ينفر العنف الأعمى غير المبرر، لذلك

أسطورة مديرية الاستعلامات والأمن

يعتبر الفوز عندي كتحدي أقدم من خلاله نص مناسب للقارئ بمفردات لائقة تكون مثابة عمل جبار خاصة المجهودات التي بذلتها لأروي أحداث لا علاقة لها بالاحترام مستخدما تعابير محترمة، أفعال منحطة ومهينة حدثت تحت الأعين الراضية لضباط القيادة العسكرية العليا مثل ما قام به عباس غزيل بشكل مقرف وهو يتبول على الجسد العاري الغائب عن الوعي لأحد المعتقلين الذي تم رُمي تحت قدميه أمام المعتقلين وجلادهم. ذلك الشاب الجزائري كان قد بقي ساعات طويلة واقفا عاريا في برد ليل فصل الشتاء، ثم أكملوا فعلتهم الشنعاء برشه بالماء المثلج والركلات إلى الرأس والصدر؛ فتكالب عليه أولئك الخثالة إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

بعد تراجعني عن كتابة نسخة من الحقائق المليئة بالحقد الدفين وحب الانتقام بأسلوبي المعتاد سأحاول أن أكون صادقا ومخلصا إلى أقصى الحدود حتى ولو كان الأمر حساسا جدا خاصة في مواجهة رفض العائلات والأصدقاء الذين مستهم هذه المأساة التي لطخت صورة الجيش الجزائري كما هو حال الرفاق الذين يرفضون ذكر أسمائهم لأسباب أتفهمها مئاما. ليس ذلك بالأمر المهم لأنني أعتقد أنه يحق لي بصفتي طرفا وشاهدا عاش الأحداث بحذاقها إبلاغ القراء بوجود تعذيب ممنهج في جميع هياكل المخابرات الجزائرية.

لن أطرح لكم خيالا وهميا على هذه الأوراق البيضاء بل سأسرد لكم كل الحقائق والأحداث بأدق التفاصيل لتكون قصة موسومة بختم الصدق ملتحفة رداء المصادقية.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

سأنقل للقارئ جميع الأحداث دون تحريف أو استغلال أو حياد عن الحقيقة ففي الواقع يسمع لي ذكر الأماكن أما التواريخ فستكون بشكل تقريبي دون ذكر هوية وأسماء الضحايا وهو ما يتوجب علي احترامه.

ما سأنتطرق إليه في هذه المذكرات المتواضعة هو حقيقتي الشخصية وليست لأحد آخر والتي أتمنى أن تكون منارة يهتدي بها شباب الحراك اليوم وهم شباب عاشوا مراهقتهم في أواخر سنوات عريضة الجذالات ولسوء حظهم لا يعرفون سوى نسخة واحدة للحقيقة وهي تلك النسخة التي تنشرها الصحافة المأمورة أو الصحافة الاستقصائية وإشاعات أبواق الدعاية.

لا أحاول حتى التفكير في مخاطبة كبار السن الذين سكنوا أروقة حزب جبهة التحرير الوطني منذ الاستقلال وشغلوا مناصب هامة في الرئاسة ينحنون فيها انحناء الرضوخ ويتجروون وبدون خجل على التأكيد بأن أعمال العنف الإرهابية تم الاعتراف بها وتوثيقها وتحديد هويات أصحابها.

سأنقل للقارئ تجربتي الشخصية مع الاختطاف والاحتجاز في مركز عبلة (عنتر سابقا) وفترة ايداعي سجن بربروس وتوقيفي في سجن لامبار وإقامتي كسجين غير مرئي في سجن الشلف المسمى سجن الخوف في درجات برودة بلغت تحت الصفر، أين كان الحراس مفروس وبن ثابت وزنقة يسحئون عني عند كل موعد زيارة لكن دون جدوى، لكنني سأخطي طواعية سلسلة انتقالاتي القصيرة من سجن إلى آخر لحضور جلسات مواجهة حتى أحافظ على سلامة وحياة بعض الأشخاص.

الفروع الثلاثة المتوارثة عن وزارة التسليح والعلاقات العامة وهي: المديرية المركزية للأمن الداخلي والمديرية المركزية للأمن الخارجي والمديرية المركزية للأمن العسكري تعتبر المسؤول المباشر عن المأساة التي مست ربع مليون جزائري حسب الإحصائيات التي أعلنها رئيس حكومتهم آنذاك أحمد أويحيى، لكن التاريخ سيكشف حتما إلى أي مدى هو رقم بعيد عن العدد الحقيقي للضحايا الأبرياء.

الكثير من التواريخ بقيت حية في ذاكرتي منذ السنوات الأولى للانقلاب لكن الكثير من الأحزان والدموع قد فقدت حرقها وتم نسيان الكثير من الأحداث المهمة التي شهدناها، لذلك وحتى لا أكون مملا أدفع إلى الضجر أحاول أن أجمع المحطات التي أراها مهمة ولا بد من الاطلاع عليها وتقديمها للرأي العام.

الفصل الثاني:

عربن الشياطين

بعد اندلاع الثورة التحريرية -آه كم أحب هذه الحملة- عاد أبي من فرنسا ليستقر عند أقاربه بالعاصمة، حيث كان أخوه الأصغر وأعمامه وثلاثة من أبناء عمومته قد التحقوا بجبهات القتال فتم تكليف والدي مع جدتي بالقيام بمهام متنوعة لوجيستكية ومالية مع الاهتمام بالمراسلات التي يذكرني نظامها بذلك الذي وضعته الجماعة الإسلامية المسلحة قبل توقيف قادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ بفترة طويلة.

في تشرين الثاني من سنة 1957 كنا نسكن بالقرب من الفصيلة الإدارية المتخصصة الفرنسية في حي لا بروفال بالقبة، وفي إحدى الأمسيات في حدود التاسعة ليلا قام أحد الجزائريين الملتزمين بجلب كتيبة من الجنود الفرنسيين إلى منزلنا مباشرة.

تم توقيف والدي الذي كان في المنزل حينها بشكل تعسفي وتم تجريدته من الملابس ورميه على الأرض تحت المطر في الوقت الذي كان فيه جنود آخرون يحفرون أرض المنزل بالمعول والمجرف بحثا عن أسلحة يفترض أنها مدفونة هناك.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

بعد أن فشلوا في إيجاد أي شيء، بدأوا في تعنيف والدي وهو ملقى على الأرض، لم يتعد سني حينها ثلاث سنوات فتأثرت بالمشهد وانفجرت بالبكاء وبدأت بالصراخ بكل ما أوتيت من قوة، فأمر ضابط شاب الجنود بأخذ والدي معهم على الفور ثم أخذني من يد أمي وأعطاني ثلاثة ألواح من الشوكولاتة فتوقفت عن البكاء وكان أبي قد توارى عن الأنظار، بعد مغادرتهم لاحظت والدتي أنه لم يتم سرقة أي غرض من الأغراض ولا حتى إفساد مؤونة المنزل، وبعد أسبوع تم السماح لنا بزيارة والدي في مركز الاعتقال الذي كان يتواجد في بئر طرارية بالجزائر العاصمة.

بعد الاستقلال، ترعرعت في الكثير من الأحياء ببلدية القبة لكن المكان الوحيد الذي كان يلفت فضولي على وجه الخصوص كان منزلا كبيرا تابعا للدولة وبالتحديد لوزارة الدفاع الوطني، حيث أن عائلة مكونة من زوجين كبيرين في السن مع ابن في السابعة عشر من عمره كانت تسكن أحد أجنحته. كان الولد المدعو عبد الرزاق د. في نفس عمري يقدم أباه على أنه ضابط في الأمن العسكري.

ذلك المنزل هو ما ساسميه عرين المخابرات، حين يقع نظرك عليها تحسبها أحد ديكورات رواية فرانكشتاين بجدرانها المتهترئة وواجهتها المغطاة المكسوة بنباتات متسلقة من جميع الأصناف تصل إلى نوافذ الطابق الأول مما يؤكد عدم حصولها على أي ترميم أو صيانة منذ مغادرة الجنود الفرنسيين لها.

بين سنتي 1970/1971 كنت أقف أمام الفيلا الغامضة لأتبع تلك الحركة الكثيفة ليلا ونهارا: سيارات تذهب وأخرى تأتي لأن روادها كانوا دائما يأتون على متن واحدة، لأشاهد شبابا عزب دون الخامسة والعشرين يلجونها طوال

عرين الشياطين

اليوم، وجوههم حزينة عابسة تعلوها تكشيرة بدل الابتسامة، لكنني لم أتخيل يوماً أن هؤلاء هم من سيصبحون في المستقبل منشترين على كامل التراب الوطني كجلادين ومرتكبي جرائم تعذيب واضطهاد بل كست أنساء لسنوات عدة عن ما يدور داخل تلك الفيلا؟

اعترف لي عبد الرزاق د. الذي أصبح صديقاً لي بعد حصوله على البكالوريا أن والده يضغط عليه حتى يلتحق بالطيران العسكري ويبعده عن اختياره للأمن العسكري بعد حصوله على التقاعد، كما أسرّ لي أن والده كان يفضّ أعمالهم القذرة وأنه لا يتمنى أن يرى ابنه يختار تلك الحياة ويتشرب من الجبن والبغض الذي يتميز به المجندون تحت مسؤوليته من مجهولي النسب.

في تلك الفترة لم تكن التجاوزات لمس الناس البسطاء بل كانت تلمس حياة الطبقة السياسية والأثمة والمعارضين بما في ذلك أقرباءهم وأفراد عائلاتهم. فقد مرت بمحاذااتي العديد من الشخصيات المعروفة مثل فرحات عباس، محمد السعيد، الإخوة علي وسعيد رحال حيث شهدت تلك الفيلا الكثيرة على سوء المعاملة والإهانة التي تعرضوا لها.

في نهاية الأمر يتضح أن هؤلاء هم الرجال الذين شكلوا الشرطة السياسية لمصالح المخابرات الجزائرية أي أنهم اللبنة الأساسية لمديرية الاستعلامات والأمن في سنة 1992.

في مركز عبلة (عنتر سابقاً) وفي جميع المراكز الوطنية الأخرى التابعة له قام رجال خريجون من مخافر عرين الشياطين بالتعاهد على إبادة الإسلاميين بعد انقلاب 1992، فهؤلاء هم بالتحديد ما يمكننا تسميته بمنظمة إرهابية والتي خرج

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

غالبية الشعب اليوم للتنديد بها بطريقة شرعية وهم من كانوا وراء الاغتيالات واختفاء أبناء هذا الشعب في فترة العشرية السوداء، ولا يزالون على نفس النهج في أيام هذا الحراك باستخدام طرق التصفية الجسدية ضد المتظاهرين الشباب.

وبالنظر للوعي السائد بين أفراد شعبنا اليوم فإن أبناء عرين الشياطين وقائدهم رئيس أركان الجيش هم أهم رموز البربرية العسكرية في ذاكرتنا الجماعية بما اقترفوه من جرائم وإبادات في جميع المدن الجزائرية.

بعد مرور ثلاثين سنة عن الجرائم المرتكبة في مراكز التعذيب المخصصة لمحور أي معارضة للنظام العسكري حان وقت سرد الأحداث والحقائق بكل تفاصيلها لترسم صورتها في الأذهان وتحفر في الذاكرة، لذلك يتوجب ذكر اسم الجلاد ومركز التعذيب والسجن، حيث ذاق الكثيرون ألوانا كثيرة من اللاألام والمعاناة.

للتذكير مرة أخرى بأنني أحد الناجين الذين لا يزالون على قيد الحياة من بين عدد كبير من الذين استطاعوا الصمود تلك السنوات المرعبة وأستسمع نفسي في أن أكون أول من يخط ويروي الحقائق التي أتمنى أن تشجع وتدفع باقي ضحايا العشرية السوداء للقيام بالمثل.

الفصل الثالث:

عملية اعتقالني

في يوم الجمعة الثامن عشر من شهر كانون الأول من سنة 1992 كنت في سريري على الحادية عشر ليلا غير مبالي تماما كما كان والدي، فجأة سمعت والدتي أصوات غريبة عند عتبة الباب كأنها أصوات تحريك لأسلحة النارية فجاءت لتحذيري بأن أفراد من العسكر على وشك طرق الباب، بعد بضع ثواني كنت متاهبا وبعد الطريقة الأولى فتحت الباب على مصراعيه ليقابلني رجل ضخيم ملثم مشيرا علي بأصبعه قائلا: «نعم، إنه هو».

وإذا بضربة رشاش تنهال بقوة على جبهتي وضربة أخرى على رأس ابني البالغ من العمر آنذاك سبع سنوات والذي انزلق بين قدمي ليفر هاربا، ثم قاموا بجري من ياقة قميصي إلى سيارة النينجا ثم انهالوا علي بضربات السلاح والركلات ليرموني بعدها ووجهي مخضب بالدماء ويدي مكبلتين وراء الظهر في مؤخرة سيارة رباعية الدفع التي انطلقت باتجاه رويسو (العناصر الآن). حينها استرجعت ذكرياتي ولاحظت وجه الشبه مع طريقة اعتقال والدي سنة 1957 على يد

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

عساكر فرنسا غير أن الفرق الوحيد والشاسع بين العمليتين أن ولدي تعرض لضربة بالرشاش على الرأس عوض قطع الشوكولاتة، يا لحسرتي وأنا أرى جنديا جزائريا يضرب بسلاحه طفلا بريئا هو حفيد عائلة ثورية، لقد رمقته بنظرات كلها كره وحقد في حين كنت أتعرض للتعنيف على يد زملائه.

لم أشك أبدا أنه يمكن لذلك الطقم الذي ارتدبته مرة ضمن ذلك الجيش من بدلة وحذاء وكلاشينكوف أن يفقد مرجعيته وهيبته وحتى قيمته المعنوية كليا، فالجنود أصبحوا عبارة عن حيوانات متشردة لا تثير الشفقة بل تثير الاشمئزاز بوساقتها ووحشيتها.

علمت في وقت لاحق أن أكثر من خمسين سيارة من مختلف مصالح محاربة الإرهاب بما في ذلك مصالح عسكرية، قوات خاصة، قوات الدرك والشرطة قد التحقت بالعملية على أساس أنها عملية القضاء على خمس وعشرون مترشحا محتملا للخروج عن القانون أو الالتحاق بمعاقل التنظيم.

السيارة الأولى من القافلة كانت متواجدة على مستوى التقاء شارع المعدومين بشارع واد كنيس أما آخر واحدة فكانت على مستوى عيادة سانت أنطوان، شارع محمد رابية بالقبة بما يعني أن كيلومترا واحدا على الأكثر كان يفصل سيارة بداية القافلة عن آخر واحدة.

ما حدث في منزلي خلال عملية اعتقالي هو سرقة مبلغ مالي مقدّر بـ 8000 دج ووثائق ملكية شقة قيد الاقتناء ومفاتيح سيارة والغريب في الأمر أن السيارة بقيت مركونة في مكانها طوال اليوم ولم تختف سوى في الليلة الموالية مما يدل على أنه عمل منعزل لعميل سري فقد توازنه تحت تأثير المهلوسات.

عملية اعتقال

حوالي الساعة الثالثة صباحا انتهت عملية الاختطاف عند منزل بأعالي تيليملي فاتجه الحشد إلى عرين الضباع بمركز عبله (عتر سابقا) وخلال الطريق انفصلت العديد من السيارات المدججة بالرجال المسلحين لتعود كل واحدة لشكتها.

السيارات التي دخلت لشكة بن عكنون أين كان تتواجد وحوش بشرية في انتظار وصول اللحم النئ والدم الطازج، لم تكن سوى سيارات توصيل قامت بمهمة تسليم للسلع فقط.

كانت الأصفاة حول معصمي ووشاح أسود يلف أعيني ومسدس كبير موجه إلى رأسي حين تم اقتيادي بقوة وإرغامي على صعود الأدراج المؤدية لمكتب الاستجواب.

تم دفعي بعنف داخل غرفة كبيرة فتاهى لمسامعي صوت بشري لأحد الضباط الذي كان يوجهني نحو مكتبه بوابل من الشتائم لاستكمال ورقة المعلومات وملء معطيات المطابقة وإقرار باستلام المنتج. يتم الأمر بسرعة فائقة فور تفوهك بالأجوبة!

لقد تلقيت تعليمات صارمة بعدم رفع الوشاح عن عيني تحت أي ظرف من الظروف، وإلا سأخاطر بفقدان حياتي في وقت أقرب مما كنت أتمناه فانصعت طواعية، ولم يستغرق الأمر إلا بضع ثوان لأجد نفسي في الطوابق الأرضية التي سبقتها شهرتها السيئة.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

معجزة أن لامست الأرضية شديدة البرودة، التفت بشكل غريزي لأنظر من فوق كتفي فشعرت بالموت يتسلل عبر ثقب المفاتيح لينقض على أحد تلك الأجساد المستلقية لاستغلال فترة وجيزة من الراحة.

قبل أن أضع عيني على كل تلك الخرق البشرية المتكئة على الحائط، أخذت نفساً عميقاً تبعه تطهير عاطفي عميق حيث بدأت بالبكاء بصوت عالٍ.

الفصل الرابع:

جلسات التعذيب

قبل الشروع في هذا الفصل أظن أنه لا بد من التذكير بما قاله الجنرال جاك ماسو نظرا للتشابه الكبير بين الحربين التي تم خوضها ضد الشعب الجزائري حيث قال: «مبدأ التعذيب كان مقبولا؛ على الرغم من أنه عمل مشين تم التغطية عليه بل والأمر به من طرف السلطات المدنية التي كانت على دراية تامة». «لقد قلت واعترفت بأن التعذيب كان منتشرا في الجزائر [...]». كان يجب علينا أن نفعل خلاف ذلك، هذا ما أفكر فيه. لكن كيف وماذا؟ لا أعرف. كان من الضروري السعي في محاولة لإيجاد طريقة أخرى. للأسف لم ننجح، لا سالان، ولا آلارد، ولا أنا، ولا أحد».

هذا يدل على أن جنرالات الجيش الوطني الشعبي لم يخترعوا شيئا جديدا بل اتبعوا فقط خطى أسيادهم.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

الجلسة الأولى:

بعد أن استرجعت بعضا من قواي رفعت رأسي وحررت بصري. بمجرد أن تعودت على الضوء بدأت تظهر لي مجموعة مكونة من خمسين رجلا ضعاف البنية من الجوع والبرد والخوف والرعب. انتابني خوف وهلع كبيرين فلقد كانوا يشبهون رجال الكهوف ذوي اللحية بملابسهم المتسخة وشعرهم الكثيف. خالجتني فكرة جنونية: هل يا ترى كان محكوما علينا أن نموت بهذه الطريقة؟ رفعت رأسي مرة ثانية وممعت في تلك الوجوه التي يمر أمام ناظري. تعرفت أخيرا على صديق لي، ثم اثنين ثم ثلاثة وأخيرا فهمت أن المجموعة كلها هنا من اتهموهم بتفجير مطار الجزائر والذين تم توقيفهم الأسبوع الماضي.

في صبيحة اليوم الموالي الأحد 20 كانون الأول 1992، حوالي الساعة الثامنة صباحا، أخبرني زميل يقبع على يميني أن الاستجوابات العنيفة قد استأنفت فقد كان يومي الأول لدى الجلادين المترعرعين في دور الأيتام.

كان عدد المطلوبين سبعة وكنا ثلاثة وافدين جدد في تلك القاعة الباردة فتم استكمال العدد، بما أن نشاط عملاء المركز قد عاد في الطابق العلوي فهذا يعني قرب بداية جلسات التعذيب.

لم يطل انتظارنا كثيرا حتى اقترب أحد الزبانية من الباب الحديدي الثقيل، استغرق بعض الوقت ليزيل القفل والسلسلة الثقيلة ثم دخل متبوعا بزميل له ممسكا بقطعة ورقية، فتحت البوابة فقمنا بإعادة غطاء الأعين إلى مكانه على الفور قبل ولوج أول واحد منهم، ثم استدعاء اسمين هما محمد. ب من القبة والثاني أحد

جلسات التعذيب

الإخوة من مفتاح يدعى سالم والذي يبدو عليه أنه أقام في مركز عيلة لفترة طويلة، بدا لي أن وجه الشاب وهو الجزء الوحيد المرئي من الرجل قد تقدم في السن بسبب التعذيب، ولم يكن لديه سوى عظام تحت جلده، ولحيته كانت طويلة، لم يكن يرتدي ملابس سوى قشاية شتوية بنية كانت مقرفة بشكل لا يصدق.

توجه الرجلان نحو المخرج وهما لا يصران شيئاً، أمسكهما العسكران من رقبتيهما مثل الأغنام دون رحمة لياخذوهما إلى غرفة مجهزة بشتى أدوات التعذيب تذكرنا بالمتحف الذي تُعرض فيه ما كان مستخدماً سابقاً في أوشفيتز.

بعد ساعتين، تم استدعاء جمال ب. نهض الشاب الأربعيني بصعوبة كبيرة وذلك نتيجة واضحة للجلسات السابقة، صرخ الجلاد الواقف على الباب عليه كحيوان شرس لكن لم يحاول أي أحد مساعدته على الوقوف لأن الخوف والرعب قد تملكوا الأجساد والقلوب والأرواح.

خرج الرجل المسكين من عتبة الباب بخطى غير ثابتة فقبض عليه جلادان ملثمين لجرّاه على طول سلاّم عمودية تقريبا، في وقت لاحق علمت أنه تم أخذه لمواجهة أخيه في ما يخص مسألة مشتركة بيننا كذلك وهي اختفاء كمية من ثلاثي نيتروتولوين قبل عملية تفتيش منزل المعنيان بالأمر.

بعد أقل من نصف ساعة، تم قذف الرجل من رجليه وذراعيه في وسط القاعة على البلاط القاسي وهو فاقد للوعي مخضب الوجه بالدماء لكن لم يحرك أحد ساكنا فكما يقول المثل الشعبي: «الخوف يجري الشيوخة»؛ «الخوف يدفع بالشيخ المسن للجري».

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

بعد وهلة صغيرة من الذهول زحف أحدهم نحو الجسد الغائب عن الوعي لسحبه ببطء وحذر نحو الجدار، كانت ملابسه مبللة فقد تناوب وهو مربوط على طاولة التعذيب بين قطعة القماش المبللة والصعق بالكهرباء مرة بعد مرة، وبما أنه كان فقد الوعي بسهولة فقد اعتبروا أنه من الحبيطة حفظه لجلسات قادمة.

كان المسمى تاجار شاب من بوفاريك تم اعتقاله بالخطأ في الشارع خلال إحدى الحملات البوليسية، اقترب الشاب من الجسم المتكئ على الحائط ببطء وأخرج قطعة شوكلاتة أمباسادور من جيبه ليضعها في فم جمال ب.

كان الوقت يمر ولم يظهر أي أثر عن الأخ محمد ب. أما بالنسبة للأخ سالم من مفتاح فلم يعد أبدا إلى الطابق الأرضي ولقد علمنا حين كنا في سجن لامبيز أن عائلته لم تره منذ اعتقاله بمنزله على يد القوات الخاصة.

بعد لحظات انطلق صوت جرس لكن لا أحد أبه لذلك ما عداي لأنني كنت معتادا على النشاط البدني وفي حالة تأهب دائم، لقد كان جرس مطعم عملاء المركز فقد كان وقت الغداء.

لقد كنا منذ الثامنة صباحا في حالة تأهب قصوى إلى أن قرع ذلك الجرس الذي يدعو الزبانية إلى الطعام، حينها ظهر بعض الارتياح على الوجوه. اعتدت على ذلك بسرعة كبيرة فوقت الاستراحة يأتي حين يذهب الوحوش لحشو بطونهم أو إفراغها.

حوالي الساعة الثانية ظهرا انتهت جلسة التعذيب فتم جلب محمد ب. ورميه بعنف وكأنه قطعة قمامة وهو الذي كان أحد المهندسين الذين درسوا في الجهة

جلسات التعذيب

الثانية من البحر المتوسط. لم يكن باديا عليه آثار تعنيف كبيرة لأنه بقي مربوطا على طاولة اسمنتية لوقت طويل في انتظار مواجهة أخيه ثم تحريره بعد الحصول على اعترافات وأخذه للتعرف على بعض الأماكن.

لا بد من الإشارة هنا أنه في أغلب الأحيان كان يتم استدعاؤنا للتعرف على أشخاص سواء أحياء أو أموات خارج مركز عيلة، أو للتعرف على رأس مقطوعة حديثا بالسلاح الأبيض، كما حدث معي وساتطرق لذلك بوضوح في فصول قادمة.

إن عملية التعرف على الأماكن حين يكون العنصر اللازم القضاء عليه يعتبر خطيرا ومدربا عسكريا على قتال الشوارع تعتبر ضرورية جدا بالنسبة لعملاء عيلة، وهي عبارة عن زيارة للحي والسير في الأزقة بسرية تامة دون أن يعرفهم أحد، كما لا ينبغي أن ننسى أننا في السنوات التي سبقت الشعار الجبان لأبغض رجل في أرض الشهداء، رضا مالك، الذي قال ذات مرة: «الخوف يجب أن يغير المعسكر». لقد أعطى في الواقع الضوء الأخضر لتصعيد عمليات الاختفاء وتجنب الاشتباكات المباشرة مع «الإرهابيين المسلحين» واستهداف عائلاتهم وأحبائهم.

وصل الأخ محمد ب. منهكا زاحفا على بطنه وبقي على الأرض لبضع دقائق قبل النهوض وطمأنة الجميع. كان أكبرنا سنا، في الخمسينيات من عمره على ما أعتقد، كان وجهه متورما لكنه لا يزال قادرا على إصدار ابتسامة، بدأ يستعرض ببطء كفيه ويديه ليخبرنا أن اليوم كان يوما جيدا بالنسبة له. الأيدي كانت ملطخة بالدماء وممزقة بالجراح تماما بسبب مئات ضربات الهراوات المطاطية.

ما كان ملاحظا هو أنه بعد الساعة الثالثة زوالا لا يتم استدعاء أحد إلى الجحيم لكن زيارات النازيين «لليهود» لا تتوقف حتى حوالي الساعة السادسة مساءً،

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

عموما كان يوما جيدا على أية حال حين يكون لديك من طيبة القلب ما يواجر
سوء الحظ.

حوالي الساعة الثامنة مساءً، فتح مدني ملثم البوابة بلطف دون إحداث
ضوضاء كبيرة، توجه نحو ذلك التاجر الشاب من هوفاريك وهمس له ببعض
كلمات ثم غادر على رؤوس أصابع. بعد وقت قصير ودون تأخير كبير عاد محملا
بعلب البسكويت بيمو ولوحات الشوكولاتة أو مباسادور. أؤكد هنا أن هؤلاء
المجرمين في مركز عبلة (عتر سابقا) لا يهتمون كثيرا بمشاكل سوء التغذية لدى
المعتقلين. ففي كل يوم وقت الغداء، يتم خلط فتات الخبز المتبقية مع بقايا طعامهم،
والتي عادة ما يتم وضعها في سلة المهملات، ليقوموا بتوزيعها على محتجزي
الطوابق السفلية والزنايات المختلفة.

الجلسة الثانية:

يوم الاثنين 21 كانون الأول 1992 وكما يحدث يوميا يعود النشاط والحركة
اليومية بنفس الوتيرة المسطرة كورقة الصولفاج، في ذلك اليوم لم يقتصر صوت
الضوضاء على الطوابق العلوية فوق رؤوسنا بل اقتربت كثيرا من البوابة والسلام
المؤدية إلى غرف الموت مما يعني أن التعذيب كان يتم في أكثر من مكان وأن رقعة
استخدامه قد اتسعت.

على الساعة الثامنة ونصف تم استدعائي للطابق العلوي حيث تم عزلي في
زناينة ضيقة في وسطها مرحاض تركي بداخلها أخ مصاب برصاصة كان يطوي
نفسه لإخفاء حرجه ومكان إصابته. كان الجرح في فخذه تفوح منه رائحة نتنة

لكنه كان يعرف أنه هالك لا محالة بما أنهم أخبروه بأنهم لن يعالجوا الجرح الذي كان ينخر فخذه وسيرمى بعدها للكلاب.

استسلمت لضعفي الطبيعي ولم أستطع أن أبقي مكتوف الأيدي أمام ظلم الهمجيين، طرحت عليه سؤاليين أو ثلاث فرفض الإجابة فبكيت عليه وما زلت أبكي بدموع مريرة إلى يومنا هذا.

كانت شعلة الانتقام التي تغذي قلبي كل يوم هي التي ساعدتني على البقاء في ساحة القتال، إنه الواجب والدين الذي أدين به لهؤلاء الضعفاء تعيسى الحظ، لكنهم معززين بالتضحية في سبيل الله الواحد الأحد.

بعد وقت قصير تم نقلي لغرفة تعذيب أخرى لأواجه الشخص الذي اتهمني بحياسة بندقية ذات منظار، بالكاد انتهيت من إنكار التهم حتى أمر كبير الجلادين بإيماءة من رأسه بإعادتي إلى الطابق السفلي.

أمسكني الجلادون الواقفون خلفي من كتفي ورجلي ودفعوني بعيدا باتجاه السلام المؤدية إلى قاعة الاعتقال، اصطدمت بالدرجات الأولى بقوة كبيرة مما كلفني فقدان اثنتين من أسناني. رفعني الزبانية مرة ثانية وفجأة أرسلاني لأطير في الهواء متوعدين برويتي مجددا في اليوم التالي في اختبار حاسم وحاد، لأنه قبل أن يستدير ذاهبا قال لي أحدهم: «إنه دورك غدا».

في حين أن القلق كان يدمرني من الداخل حول تهمة حيازة سلاح فائق الدقة، كان صاحب التهمة أحمد د. من حسين داي في طريقه للتعرف على رفيق آخر واختطافه في وضوح النهار حوالي الساعة الرابعة مساء في طريق عودته من العمل.

على الساعة السادسة مساء لم يظهر أحمد د. فزاد قلقي أكثر فاكثراً؛ كنت أخشى أن تكون الألسنة قد فكت عقدها بسهولة وبسرعة كبيرة لذلك توجب أن أكون حذراً وألعب بذكاء. تحملت ألمي بصبر على الرغم من النذير السيئ للوضع الذي يلوح في الأفق فما فتأت أدعو الله لما هو أفضل.

حوالي الساعة التاسعة ليلاً جاء مدني آخر ودخل عندنا بهدوء وهو يحمل علبة تدخل طبي تحت ذراعه، توقف أمامي لأنني كنت الرابع على يمين المدخل وسألني:

- منذ متى وأنت مجروح؟ لأنها كانت واضحة على رأسي

- أجبته: منذ أربعة أيام.

فقام بتنظيف الجروح وتعقيمها بيدي ممرض محترف وبكل خفة ووضع ضمادات حولها وهمس لي: «إذا تم استدعاؤك غدا قم بالتخلص من الضمادات أولاً». هزرت رأسي موافقاً فأكمل زيارته للمعتقلين فقدم المساعدة لكل من يحتاجها لعل ذلك يساعده على تحمل مشاهد المعاناة التي يلحقها هو وزملاؤه بالشباب من نفس لحمهم ودمهم. فهل يكفي ذلك لتهدئة ضميره وتلطيف روحه وإعطائه نومًا هادئاً؟ لا أصدق ذلك، من غير الممكن طالما لم تنته المعاناة التي تتراكم أمام عينيه بل على العكس من ذلك فقد بدأت تأخذ أبعاداً مخيفة.

الجلسة الثالثة:

الثلاثاء 22 كانون الأول 1992. في هذه الصبيحة تم اختيار شاوين في الخامسة والعشرين من عمرهما يقطنان في فوردلو «برج البحري» للتوجه لغرف الجحيم (gehennem) حوالي الساعة صباحاً.

كان الشبان قد وصلوا من بعدي ولم يكن يبدو عليهم الخوف أو الهلع على الإطلاق فقد كانت مواجهتهم الأولى مع الجلادين أولاد الحرام.

للمرة الأولى وصلنا صوت الأنين من الألم والوجع متبوعا بتكبيرة «الله أكبر» التي استطاعت أن تفلت من بين الأبواب التي من المحتمل أن الزبانية تركوها مفتوحة من فرط تعطشهم الفطري لإهانة وإذلال الغير وهو ما يتجاوز العقل عند هؤلاء المتعطشين للدماء، لقد نسوا النوافذ والأبواب لينهاوا على أولئك الشباب للتعبير عن استيائهم وكراهيتهم للمجتمع حتى قبل التحقق من هويتهم أو اتباع الإجراءات المعتادة.

بمجرد دخول الشبان تم تجريدهم من ملابسهم وبطحتهم أرضا وربطتهما ظهرا لظهر من الصدر إلى الأرجل بما يمكن تشبيهه بأحزمة التغليف أو الجرز، ثم تم وضعهم على الطاولة الإسمنتية وأرجلهم تتدلى منها بعشرة أو عشرين سنتيمترا، دون السؤال عن نشاطهم كمناضلين إسلاميين أو انتماءهم للجماعة المسلحة تهاطلت على أقدامهم عدد لا يعد ولا يحصى من ضربات الفلقة إلى أن فقدوا الوعي.

سمعنا تكبيرهم لمدة عشرة دقائق وبعد ساعتين رغم أنني قد فقدت معنى الزمن، تم جلبهم عراة وفاقدين للوعي إلى القاعة، تم تحديد موعد جديد لهما لجلسة لاحقة فقد كانت هذه الجلسة مجرد حصّة تعارف وتقديم للرعب والأهوال التي تنتظرنا جميعا.

بالتوازي مع ما حدث مع الشبان من فوردلو (برج البحري) الذين تذكرت أسماءهما الآن وأنا أكتب هذه المذكرات الأليمة: رشيد ونور الدين، وصل ضيف

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

جديد من مجموعتي يمد القائمة الطويلة التي غرّد بها أحمد د. من حسين داي تحت ذائقة التعذيب طبعاً وهو الأخ سعيد ت. من حي الشمس والبحر (مار إي صولاي)، والآن هما الاثنان متواجدين في مكان ما من مركز الجحيم هذا.

مع وصول العم الصغير سعيد ت.، بدأت بالقلق جدّاً لأن الأمور بدأت تصبح صعبة ومن المرجح أن تبقىنا التدايعات القائلة مدى الحياة في غرف الموت الجنائزية هذه، بين جدرانها الرهيبة وتحت رحمة المعاملة اللاإنسانية لجلادي الجحيم.

لقد كان الوضع مأساوياً! على الأقل بالنسبة لي، ذلك المتمرد الذي يرفض أن يموت في أوقات المجد هذه موتاً بارداً مثل الموت المخصص للدواب.

بالنظر للعدد الكبير للأشخاص الواجب القضاء عليهم أو توقيفهم تم تهيأت مركز عبلة (عنتر سابقاً) بشكل سري وإعادة تقسيمه بأسلوب مروع يمكنه استيعاب كم هائل من القابلين للتعذيب والمعتبين في نفس الوقت وبالتالي توفير مساحة أكبر لإخفاء المزيد من الجثث.

حوالي الساعة السابعة مساءً اهتزت البوابة الحديدية وفتحت بقوة ليظهر رجلان وجههما مغطى بنصف لثام، الرجل القصير وهو العم سعيد ت. الذي ترك تاريخاً في الحواجز المزيفة فيما بعد، والأشقر الطويل وهو أحمد د. من حسين داي الذي كان نزيراً معنا منذ فترة في القاعة، لم يكن يظهر عليهما التعرض لتعنيف كبير لأنهما قد أكملتا رغماً عن إرادتهما مهمة المرشد والمشير.

كان أحمد د. وسعيد ت. أكبر مني سناً لكن الحياة أرادت أن أترعرع معهما بحكم ممارسة كرة القدم لذلك كنت أعرف شخصياتهم ومزاجهم وكان بإمكانني التنبؤ بردود أفعالهم مسبقاً، ومع ذلك عندما التقينا في سجن لا مميزات لم أخبرهم عن

جلسات التعذيب

خطة الهروب التي يتم إعدادها خوفاً من أن تؤدي الثقة المفرطة إلى عرقلة عملية تم التعب على إعدادها، يمكن كلاهما من الهروب أخيراً في 3 مارس 1994، حاول أحمد د.، بسبب مشاكل السمعة ونقص في الرؤية، مغادرة البلاد في الخارج دون جدوى. قُتل في هجوم بطائرة هليكوبتر بنيران رشاش آلي في جبال ولاية جيجل، بينما فضل سعيد ت. الالتحاق بجهة القتال في الجبال للانتقام ورد الاعتبار من جميع الإهانات والذل الذي تعرض له لمدة أربعة عشر شهراً.

الجلسة الرابعة:

اليوم هو الأربعاء 20 كانون الأول 1992. في الساعة المعتادة تم استدعاء بوسعادة م. إلى الطابق العلوي، كان يرتعش مثل ورقة شجرة في فصل الخريف، حاول دون جدوى أن يرتب الوشاح فوق عينيه فبدأ الخيثران المكلفان بحمله بالصراخ مستخدمين ألفاظاً مشينة تليق بعمال الرذيلة بيت الدعارة «القط الأسود» الذي كان يمدخل القصة منذ زمن بعيد، كانا اليوم يرتديان بدلات عسكرية ويختبآن بجبنهما وراء لثام الوجه ويتشجعون بفوهات الكلاشينكوف مهددين نفوساً مستضعفة نحيلة مرتعبة من الخوف.

هذا التغيير غير المعتاد في روتينهم له تفسير بالتأكيد، فلقد ظهر لاحقاً أن فرعا يسمى «اتصال السجاد» تم اكتشافه خلال عملية اعتقال بمركز للدرك الوطني بولاية مسيلة وأن بوسعادة م. كان حلقة الوصل بين المجموعتين.

في الجزائر العاصمة، كانت الجماعة الإسلامية المسلحة الأصلية تحت قيادة محمد علال، المعروف باسم موح ليفسي، وجماعة بوسعادة مع بلقاسم ب. كان مقرها في البيت العائلي القديم ببلدة مسقط الرأس.

في الواقع، كان أحد المجاهدين الأصليين المدعو محمد د. متخصصا في المتفجرات إبان الثورة التحريرية، وقد كان لي شرف لقائه والتعرف عليه في سجن آخر، يعمل في مستودع صغير للتصنيع اليدوي والتموين بالمتفجرات تُصنع من الأسمدة الكيماوية، فهو الذي كان مسؤولاً عن إمداد جميع المجموعات الصغيرة العاملة في وسط الجزائر من خلال بوسعادة وبلقاسم ب. والتي تنشط تحت إمرة هذين الأمرين.

تم القبض على الأمير بوسعادة وبلقاسم ب. في وهران بعدي بأيام قليلة، أدى وصوله إلى مركز التعذيب عيلة (عتر سابقاً) في بن عكنون إلى تعجيل استجواب وتعذيب بوسعادة م. ولخبط برنامج الأندال الجبناء الذين ظنوا أنهم أمسكوا مصدرا غنيا بالمعلومات.

سأعود لاحقا لأروي جميع الانتهاكات الجسدية والجنسية التي تعرض لها من وهران إلى بن عكنون لمدة ثلاثة أيام منتقلا من مخفر الشرطة إلى آخر.

فور وصوله، تم عزله في المرحاض - زنزانة - المجاور لمكتب الاستجواب الرئيسي، كانت زيارات كبار الجلادين متواصلة وكأنهم يرون حيوانا لأول مرة في حديقة الحيوانات، هذا التكتيك كان يؤدي إلى إحباط الأسير عقليا ونفسيا والذي يكون أصلا على وشك الانهيار.

بعد ساعة أو ساعتين، عاد بوسعادة م. إلينا مرتدياً قميصه فقط، كان جسده العاري من الصرة إلى القدمين مكسوا بضربات شفرة حلاقة بيد خبيرة، حيث لم تكن عميقة جدًا لكنها كافية للتنظيف بغزارة. لقد قاموا بتشليح لحمه أمام الأمير بلقاسم ب. لأنه أخوه الرابع بالفعل من أجل انتزاع اعتراف منه على عدد من الجماعات والأهداف.

هذه الوحوش ذات المظهر البشري التي ولدت ونشأت في ثكنات والتي تعاني من اضطرابات نفسية وعاطفية تمارس التعذيب كرياضة ترفيهية وتجرب الأفكار الشريرة على ضحاياها.

تم استخدام شريط مطاطي قوي على شكل حلقة ملفوفة حول أعضائه التناسلية لتعذيب الأخ الأكبر، ليس لانتزاع اعتراف منه ولكن لإقناع شقيقه الأصغر بالتحدث الذي كان مجبرا على مشاهدة المشهد والإجابة لأجل أخيه الذي كان مكمما بمسحة مبللة محشورة إلى أعماق حلقه، مشهد مروّع مشابه سأرويّه لاحقا في هذه الرواية.

ما هو السلوك الذي يمكن توقعه من ضحايا عملية إحباط مزدوجة، المحكوم عليهم بوضع ديني ومذل للأولاد غير الشرعيين داخل المجتمع المدني والمسجلين على أنهم «مولودون من الفخذ الأيسر» في المجتمع العسكري؟ ردود أفعالهم خليط بين نفسية إنسان ونفسية وحش، فلا يُشبع ملذاتهم السادية سوى رؤية وشم وتذوق الدم ببهجة شديدة تنبع من معاناة الآخرين.

الجلسة الخامسة:

اليوم هو الخميس 24 كانون الأول 1992 ليلة عيد ميلاد المسيح والتي اعتاد ضباط المخابرات الاحتفال بها في فنادق خمس نجوم إذا لم تكن أفخم الفنادق بباريس، لم يسعهم هذه السنة فعل ذلك لأنهم قد حُشروا هذه السنة بين أروقة مراكز التعذيب وعلى الأخص مركز عبلة (عنتر سابقا) بين عكنون، لم يكونوا يتحدثون سوى عن طلبات الأطباق الراقية والمتنوعة التي يتم إعدادها في المطاعم الكبرى والعلامات الفاخرة من الشمبانيزا، وفي غياب تلك الأمسيات المترفة سيضطرون إلى البقاء بصحبة الصعاليك الذين ذهبوا لجليهم من منازلهم.

كالعادة كان أول عمل روتيني لهم في الساعة 7:30 صباحاً، يأتي العملاء المسؤولون عن المراحل لياخذونا لقضاء حاجتنا قبل وصول أسيادهم، يوقفوننا في صف واحد من اثني عشر نزيراً معصوبي الأعين وبترتيب متقارب حيث كل واحد منا يلمس كتف الشخص الذي أمامه، نبدأ بالتحرك ببطء ثم نتوقف أمام المراحل الاثني عشر لدخلها دفعة واحدة، وبمجرد ولوجنا يتم تحديد مهلة زمنية مدتها ثلاث دقائق من قبل العميل المسؤول عن المراحل، مع أول ركلة في الباب لا بد لك أن تخرج أو سيتم جرك بالقوة على الأرض المبتلة، وهكذا تستمر عملية «المرحاض» هذه حتى استكمال قضاء آخر نزير من الطابق الأرضي لحاجته، بعد انتهاء تلك المهمة النبيلة يقومون بتفريغ البرميل البلاستيكي الذي يستخدم كمبولة وهي مهمة لا تقل نبلاً عن الأولى.

على الساعة التاسعة بالضبط تم استدعائي إلى الأعلى للمرة الثانية منذ وصولي، تم اقتيادي بخشونة مرفوعاً عن الأرض على يد ثلاثة أنذال ذوي بنية ضخمة بوزن المائة كيلو للواحد لكن رؤوسهم محشوة بالفول السوداني عوض دماغ طبيعي، فتحوا أحد الأبواب ودفعوني داخل غرفة وغادروا، دون أي شفقة أو تعاطف.

حين كنت أحاول النهوض ببطء شديد كنت أبحث على طاولة التعذيب وأدواتها المعتادة لكنني رأيت ما هو أشد رعباً: اثنا عشر زوجاً من الأرجل والرؤوس الملثمة بالسواد إن لم يكن أكثر، فارتابني خوف لم أشهده في حياتي، كان هناك كرسي حديدي ضخم قديم جداً كأنه آت من مراكز أوشفيتز الألمانية، فتم وضعي فوقه وربطوا أيدي وراء ظهري بالأصفاد وكل رجل مع رجل الكرسي الحديدي، بعد كل إجابة صحيحة كانت أو خاطئة يقوم أحد الزبانية برمي الكرسي بقوة

جلسات التعذيب

شديدة ومع كل سقوط كان رأسي يرتطم بالأرض فأشعر بأن لم لكم أن تتصوروه يتراوح حسب قوة الدفع. بالنسبة لأولئك المتجربين من الإنسانية كانت عبارة عن لعبة حيث كان كل واحد يتداول على رمي الكرسي على الأقل مرة واحدة، لكن خمسة منهم لم يحالفهم الحظ لأنني فقدت الوعي في الرمية السابعة حيث لم يتوقف الدم عن السيالان وازداد الألم قوة لدرجة الإغماء.

حين استيقظت على الساعة الثانية ظهرا كان رأسي مضمداً بكُم قميصي لأن العم سعيد اهتم بي. كان صوت في خاطري يقول: «تشجع فلقد اجتزت محنتك الثانية». استعدت وعيي ورشدي وشحت بناظري على هؤلاء الشباب المتكئين على الجدار المتجمد، كل واحد يحاول لف نفسه في ثلث بطانية سميكة مثل ورق التبغ، ملامحهم متجمدة وعيونهم غائرة، وفوق كل هذا النفسية المتدهورة بسبب التهديد الدائم القائم فوق رؤوسنا وهو الخروج من إحدى غرف التعذيب جثة هامدة.

بين الرابعة والخامسة مساءً، بدأت الحركة في الطوابق العلوية تنقص شيئاً فشيئاً لأن تحضيرات ليلة ميلاد المسيح تجاوزت أهمية خلاص الجمهورية، قامت شاحنات خاصة بإفراغ كميات هائلة من الطعام والشراب على طاولات قاعة الطعام، أخبرنا بذلك جمال ت. س. الذي تم استدعاؤه للمرة الثانية للاستجواب على مائدة عشاء عسكرية بباريسية، وكذا من أفراد الجماعة الجهادية الذين اعترضوا اتصالات بين الأجهزة الأمنية.

جمال ت. س. هو شاب حرفي يعمل لصالح نفسه تم استدعاؤه على الساعة السادسة والنصف مساءً، لكن قبل التطرق لجلسة تعذيبه الثانية أود رواية جلسته الأولى التي تعرض لها قبل وصولي باختصار.

ربيع الإرهاب في الجزائر - شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

تم توقيفه في منزله بعد رحلة فرار دامت أكثر من شهرين حيث اختبأ في منزل أحد أقاربه في ضواحي المدينة، وبعد أن تجاهل المخبرين من أطراف أخرى، والصحفيين الاستثنائيين العلمانيين والحركي المتطوعين من الجيران أو أولئك الذين غزوا شوارع حيه، خاطر بحياته لزبارة والدته. وحدث ما حدث، فبمجرد إنهائه لفنجان من القهوة وتدخين سيجارة وجد المنزل محاطاً من جميع الجهات. إهمال ثمنه اعتقال حوالي ثلاثين شخصاً. أرسل إلى غرف الجحيم في اليوم الموالي لوصوله ففرّد بأسماء جميع أفراد جماعته والأنشطة التي يعرفها فكانت واحدة من أنجح عمليات صيد الضباع بالنسبة لمركز عيلة (عنتر سابقاً).

تجدر الإشارة إلى أنه لم يفعل ذلك بكامل إرادته بل تعرض لأسلوب تعذيب لا يصدق يسمى الزطلة والتبغ حيث كان مرغماً على تدخين خمسين سيجارة ملفوفة بيد عملاء عيلة من بينهم عشرة محشوة بالقنب الهندي (الزطلة).

أجلسوه على الكرسي الحديدي المذكور سابقاً وألصقوا بشفاهه سيجارة، وبمجرد استهلاكه لنصفها ينزعونها لإطفائها على صدره أما السيجارة المولعة العاشرة الممزوجة بالزطلة فتترك في فمه لآخرها حتى تمنحه ذلك الإحساس بالسكينة والاسترخاء الذي يذهب العقل ويفك اللسان.

كما أخبرني خلال إقامتنا في سجن بربروس أن ذلك العذاب استمر لساعات طويلة وأظهر لي جسده المغطى بكثير من الحروق دائرية الشكل من صدره وصولاً إلى بداية الجزء السفلي من جسده - قضيبه -.

وفي عشية عيد الميلاد عام 1992 تم طلب أخينا جمال ت. س. إلى الطابق العلوي، لم يكن مدعوًا إلى مواعدهم بل كان مهرج التسلية والترفيه المهينة

جلسات التعذيب

والمشيئة، بمجرد دخوله إلى الرواق حتى استبدل العملاء عصابة عينه بلثام وجه كامل حتى لا يتمكن من التعرف على أي واحد من أولئك البغال المتسكعة.

كانت ثلاث موائد كبيرة مترفة التقديم بهشتي أصناف الطعام وكان النبيذ والكحول يسيلون ببذخ كما لو كانوا في مطعم صغير للعمال الباريسيين، آه يا قلبي، هذا هو حال البدائي إذا تحضر والجائع إذا ملأ بطنه لذلك لم تعد البلاد في أيد أمينة، نعلم أن خالد نزار وتوفيق مدين يسافران إلى أوروبا بدون جواز سفر أو بروتوكول دبلوماسي فتخيل عجوزان شمطاوان سخيغان وأخرقان بجولان في عالم متحضر وسرعان ما يضيعون مثل الكلاب الضالة.

كان الأخ المسكين جمال. ت. س جالسا وسط الطاولة الثلاث، يستقبل في يده باستمرار مثل ما يحدث في طاولات «الشعبي: الكاس يدور»، أكواب قهوة بها النبيذ أو الكحول الذي يتوجب عليه شربه على نفس وتيرتهم وهو الذي لم يسبق له أن لمس المشروبات الكحولية في حياته، يعتقد الأخ أنه ابتلع أكثر من 50 كوبًا قبل أن يبدأ في التبول في ملابسه، ثم الدخول في حالة سكر لم يعرفها من قبل أبدا.

وبما أنه لم يعد قادرا على البقاء مستيقظًا قام نوادل الحشالة بجره من ذراعيه إلى بوابة الطابق السفلي التي تفصل بين الحياة والموت. كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحا حين اقتربت منه ببطء لأنني ظننته ميتا حينها شممت رائحة الكحول تفوح منه وملابسه ملطخة كليا بالنبيذ الأحمر.

الجلسة السادسة:

في يوم الجمعة 25 كانون الأول 1992 وبعد زيارة الحشالة المكلفين بالمراحيض والحصول على دلو الماء بدأنا كل واحد على حدى عملية القضاء على القمل والتطهير منه لأننا لا نملك سوى قشابية واحدة لاستبدال الملابس، بعد أربعة أيام فقط من الاعتقال وجدت ما يقارب مائتين قملة في قميصي وحده بأكامه الطويلة.

كانت الساعة تشير إلى الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف، وقبل فتح البوابة صرخ أحد الحشالة باسم عمي السعيد بأن دوره قد حان، أعرف ذلك الرجل منذ ثلاثين سنة، إنه شجاع وجريء وحازم لكن الخوف ظهر على ملامح وجهه، إنه خائف ويريد أن يرسل لي رسالة من خلال نظراته المعبرة للغاية والتي لا تصعب قراءتها، فأنا أعلم أن لديه الكثير من الأطفال وجميعهم صغار جدًا.

كان يخاف على مصير أبنائه لو حدث له شيء، لذلك أتفهم فزعه وارتبائه، لقد مررنا جميعًا بمثل هذه اللحظات من الضعف، لكنها سرعان ما تتبدد في خضم تلك اللحظات مع أول تعنيف يقوم به حشالة نظام عصابة قطاع الطرق.

بخطوات متساقة اجتاز عتبة البوابة ليصعد على السلم العمودي تحت وطأة وحشية وإهانات الأوغاد، وبمجرد دخولهم الرواق استداروا بشكل غريب إلى اليسار، نحو مكان آخر للتعذيب يسمونه «الشامبرا»^(*) والذي تم إنشاؤه أثناء إعادة تطوير تهيئة المركز.

(*) الشامبرا: يقصد بها غرفة خاصة بتعذيب المختطفين والمعتقلين من طرف ضباط جهاز المخابرات.

جلسات التعذيب

هو مكان صغير منعزل يسمى حجرة التعذيب الناعمة، ففي وسط الغرفة يوجد سرير صغير يحل محل الطاولة الخرسانية في غرف التعذيب، لوحة تعليق الأدوات مثبتة على الحائط مع حقيبة عسكرية صغيرة معلقة على الجانب.

لاحظ العم السعيد ت. كل تلك العناصر من الوهلة الأولى وفهم على الفور ما سوف يدور هناك، كان يعرف ما هي نواياهم لكن ما الذي يمكنه فعله سوى التخطيط لإعلان رفضه لهذا الفعل؟ حتى لو كان التعذيب في زمن الحرب فإنه عمل وحشي وغير إنساني.

تم دفعه إلى سرير بحجم مقعد حديقة عامة، وبعد الصراع والتخطيط من شدة اليأس تمكنوا من التغلب عليه بعدة ضربات بذراع السلاح وحذاء الرانجاس، تم إجباره على الاستلقاء في وضعية مهينة أشد إهانة حيث يجد المعتقل نفسه مقيدا وركبتيه متباعدتين في منتصف هيكل السرير، يدها مقيدتان إلى رأس السرير ورجلاه مقيدتان بنهاية السرير، ولكي لا أدخل في تفاصيل يندى لها الجبين، أختصر المشهد فيما كان يقترحه الغوريلات الوسخة من وضعيات، حيث اقترح الأول أن يجلس على السرير ويأخذ «وضعية السجود»، والثاني اقترح وضعية أخرى تشهد على ثقافتهم الإباحية، في مثل هذا الموقف يغتصب العملاء السريون الجزائريون رجلاً، وأباً جزائرياً أصيلاً... والده ليس من تونس أو من المغرب.

تعرض المسكين لشتى أنواع العنف والاعتداء الجنسي: التعري واللمس واللواط الجنسي باستخدام قضيب حديدي رغم أنه اعترف بجميع التهم الموجهة إليه، حتى إنه اعترف بارتكابه لأعمال اخترعها من محض خياله وأشخاصا لم يكونوا موجودين أساساً.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

من الواضح أن القارئ قد لاحظ المعاملة الخاصة التي يحظى بها العم السعيدت. دون أي مرور.

يبدو أن المتفجرات التي استخدمت في الأبيار ضد هتلر الجزائر خالد نزار قد سلمها بيديه إلى منفذي التفجيرات بالعاصمة مع الانفجار، تسبب الخوف المفاجئ الذي أعقبه الذعر في حدوث إسهاال مفاجئ عند اللواء العريف، مما جعله يطلب زها عسكريا جديدا قبل أن يغادر سيارته المستهدفة في الهجوم. رأيي الشخصي؟ لقد كان محظوظا جدا، لا زلت أتمنى أن تستجاب صلواتي وأدعيني من أجل أخذ الحق من هذا الظالم.

لقد اعتدنا ومن سبقونا في قاعة الموت تلك على التعذيب «الكلاسيكي» المتمثل في قطعة ممسحة مبللة والعصا والصدمات الكهربائية والعزل، هذه الطريقة الجديدة الجديرة بالمرضى النفسيين والمنحرفين بدأت تأخذ أبعادا مقلقة بالنظر إلى التعاون الوثيق للغاية بين الهياكل الأمنية الإرهابية المتعددة المنتشرة في الوطن.

هل جميع عناصر الأجهزة الأمنية مصابة بهذه الاضطرابات المرضية؟ هل جميعهم مجرمون سيكوباتيين؟ لا يبدو لي ذلك، من بينهم من يظهرون بشكل محترم في الحياة الاجتماعية لذا يجب أن نحاول يوما ما الحصول على إجابات عما يدفعهم نحو ذلك الإجرام وراء تلك الجدران.

كيف يمكن تبرير ارتكاب كل تلك الأفعال المشينة المرعبة بيد جزائري على جزائري؟ أنا شاهد عيان رأيت الجروح الشرجية التي سببتها القضبان الحديدية.

تلك الضحية التي تعرضت لعنف جنسي على يد الدولة الجزائرية كان مواطنا مسالما صادقا ومحترما يتمتع بحقوق ويقوم بواجبات يمنحها امتياز كونه مواطنا

جلسات التعذيب

جزائرياً، فرّ من سجن انقلابي بناير بعد أو وصل إلى أعلى مستوى من الاختلال النفسي والقسوة لدرجة الجنون الفعلي فبعد أن تعرض لكل تلك الوحشية من الاعتداءات الجنسية أصبح آلة قتل فتاة.

عند منتصف النهار استقبلنا عمي السعيد الذي لم يكن قادراً على المشي ووجهه في حالة يرثى لها من شدة الضربات من شتى الأنواع. بمجرد أن اختفى الزبانية تقدمت منه لمساعدته على الجلوس وهو ما رفضه بشدة مما يدل أن بعض الحياة مازالت تدب في الرجل وفهمت في وقت لاحق أنه لم يكن قادراً على الجلوس فوق مؤخرته.

السبب الذي جعلني أطيل الحديث عن قضية العم سعيد ت. الذي كنت أعرفه شخصياً هو تحقيق هدفين في نفس الوقت.

بادئ ذي بدء وبظهور اهتمام شعبي واسع أردت تأكيد وجود شتى أنواع الاعتداء الجنسي والاغتصاب ضد الرجال في جميع مقار الأجهزة الأمنية الجزائرية، مدنية أو عسكرية، كإجراء من إجراءات الاستجواب والتعذيب المنهجي المؤسساتي.

وثانياً، لأداء واجب ضروري لبناء جزائر جديدة غير قابلة للتجزئة تبدأ بالتحقيق في جميع أشكال العنف والوحشية الجنسية ضد الرجال والنساء على حد سواء.

سوف أتطرق لاحقاً لحالة فريدة أخرى من حالات الاعتداء الجنسي تعود لما قبل العصور الوسطى، ضد أخ وشقيقته في مركز الشرطة في غرب جمهورية الجزائر.

في 3 مارس 1994، حدث عملية فرار، من أكثر العمليات إثارة في العالم من حيث العدد والأسلوب، والأهم أنها كانت من أشد السجون تحصينا في الجزائر، ومنذ أن خطى العم السعيد أولى خطواته في جبال باتنة انطلق للعشور على عملاء دولة الجزائر المتعفين، سوف أسرد لكم بعض أعماله الانتقامية ضد جميع عملاء الدولة ممن يحملون السلاح ويرتدون البدلات.

الجلسة السابعة:

لقد جعلتنا أجهزة الدعاية نعتقد لفترة طويلة أن الأمن العسكري، وبكل تسمياته الموجودة، كان أئمن جوهرية للجزائر المستقلة، كنا جميعا نؤمن بذلك وكنا جميعا فخوريين، لأن نشاطه الإجرامي آنذاك كان يقتصر تقريرا ضد شخصيات غير معروفة جدا لدى عامة الناس الذين كانوا ساذجين وملتزمين يؤمنون بالخرافات كما كنا نحن كذلك. لقد تمكنوا من خداعنا لبعض الوقت لكننا لم نعد كذلك الآن.

أدركنا ذلك سنة 1988 والتزمنا الصمت رغم جرائمه المتعددة، وفي عام 1991 أيقظنا الوحش متعدد الرؤوس الذي وصل عدد الضحايا على يده إلى أكثر من مليون، إنه مخلوق لا إنساني همجي لا هوادة فيه، كان لا بد لنا من فهم ذلك منذ البداية فأذرع الوحش تمتد إلى كل مكان في هيئة قطيع بملايس خضراء أو زرقاء أحيانا، الذي يمتع ناظره ولا يتوقف أبدا عن الابتهاج بعد ساعة فقط من إبادة العديد من الأبرياء.

بعد انتهاء نشوة السكر، استأنف عملاء قطاع الطرق صخبهم الكتيب في وقت متأخر من صبيحة يوم السبت 26 كانون الأول 1992، لا أعلم كم هي

ساعة لكن كان من المفروض أن يُستجوب أحمد د. من حسين داي في قضية
مخصني وهي حيازة متفجرات وبنديّة القنص.

تم العثور على كمية من المتفجرات لدى العم سعيد ت. مدفونة في أرض
مسطحة على الطريق السريع الرابط بين بنر خادم وبن عكون أما الباقي، وهي
كمية لا يُستهان بها، من المفترض أن تكون في حوزتنا ما لم ننكر كلانا هذه
الادعاءات لأن الوقائع تقول إنني كنت مسؤولاً عن بنديّة القنص وكان هو
المسؤول عن المتفجرات ومشغلات التفجير والموقت وجهاز التحكم عن بعد.

في غضون ذلك، كان الأشقاء الثلاثة بوسعادة يتعرضون جماعياً لاستجواب
بغض وعنيف. كان أحدهم مقيد اليدين والقدمين ملقياً ظهره على الطاولة،
اقترب منه جلاد تحت أنظار شقيقه وهو يمسك بيده شريطاً مطاطياً مربعاً، من
النوع الذي استخدمناه في شبابنا لصنع قاذف الحصى (تيربولات)، ليصنع عقدة
كعقدة المشنقة ثم أنزل سروال الرجل المستلقي وكشف عن أعضائه التناسلية،
ووضع العقدة حول خصيتيه التي عزلها بحركة بطيئة وخبرة.

لكل سؤال متبوع بإجابة تعتبر غير كافية تزيد شدة السحب على الشريط
المطاطي مما يضاعف الألم في تلك المنطقة الحساسة للغاية واستمرت تلك المعاناة
مع الجلادين لمدة طويلة.

كان الهدف من الجلسة هو التحقق من وجود أيادي أجنبية في القضية
وكالعادة كانوا يسرون في الاتجاه الخاطي، معتمدين في تحقيقاتهم على ثروة
المخبرين وباعة الشائعات، فهذا يدل على أنهم غريبون على وظيفة الاستخبارات
والتحقيقات اقتداء بمحاولة الأجهزة المغربية تحويل «الطولي» (مصفح السيارات)

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

عبد الحق لعبادة إلى تسوية سياسية فأجرت العديد من وكالات الاستخبارات الأجنبية اتصالات مع منشدين مؤيدين للعمل المسلح ضد هذا النظام الذي يقود البلاد نحو الهلاك، لقد أثبت العديد من هذه الوكالات بالفعل نواياها وترتب عنها نتائج تؤكد حسن نيتها.

لقد عقدنا أنا وأحمد د. صفقة تبين أنها مفتاح خلاصنا وهي أن يقبل كل منا مصيره واتفقنا على سيناريو موحد: يجب أن يتحمل مسؤولية أي اعترافات خرجت منه في جلسات التعذيب السابقة، وإذا لم يتمكن من سحبي من القضية فسأعترف وأشير إلى المكان الذي كلفت ابنته الكبرى بإخفاء تلك المجموعة من المعدات الخطيرة فيه.

لقد استخدمت ابتزازا خسيسا لكنه كان بطاقة ضرورية لبقائي على قيد الحياة، كنت أعلم أنه لم يبلغ عني إلا حين هددته الضابط بالتعرض لابنته البالغة من العمر 15 عامًا وقد أخبرني أنه قد أمر كذلك بجلبها إلى المركز، لم نعد ندري هل كنا نلعب بحياة أفراد عائلتنا مقابل حياتنا أو العكس لكنه كان يبدو عادلا للغاية في حد ذاته.

توجهنا لمواجهة الجلادين الجبناء والأشرار ونحن محملان ببعض الأفكار للنجاة، كان هو الأول في الالتحاق بطاولة غرفة التعذيب الرئيسية.

تم تثبيته بإحكام على البطن واليدين مربوطتين تحت الطاولة والقدمين على كل من أرجل الطاولة، تم تنزيل السروال إلى ركبتيه، ومكواة لحام ذات لسان أحمر وأزرق في اتجاه مؤخرته.

جلسات التعذيب

بدا صلبًا جدًا بالنسبة لهم نظرا لكبر حجمه ووزنه لكن ما كادت تنبعث رائحة احتراق الشعر عند اقتراب الحديد المتوهج حينها فقد وعيه وكان بحاجة إلى إيقاظه، تم حرقه في ردفه الأيسر مرتين فامتثل لشروط الاتفاقية، ثلاث مرات أخرى على الجانب الأيمن انزلق إلى العناد والمقاومة على حساب حياته، حتى أنهم هددوا بجلب ابنته لاغتصابها أمام عينيه لكنه لم يابه، وهنا يجب أن أعترف ومن تجربتي الشخصية أن الألم عندما تفوق شدته الاحتمال لا يصبح محسوسا.

هذه الجلسة لم تدم طويلا لأن الاعترافات التي أدلى بها العم سعيد ت. كانت تروق للجلادين الذين تحققوا من صحتها.

لقد قطع العم سعيد ت. وترًا حساسا في شباك أكلة لحوم البشر من عملاء المخابرات، لقد احترقت سيارة بيجو 504 سوداء على متنها شحنة من مادة متفجرة (تي إن تي) وتجاوزت حاجزا للدرك الوطني عند مخرج ولاية باتنة باتجاه الجزائر العاصمة، وبعد مسافة كيلومترين كان يتواجد حاجز ثاني والذي كان مقررا أن يعترضها في حالة فشل الأول لكنه لم يستقبل سيارة مطابقة للأوصاف أو يرى أي سيارة تعود أدراجها منتصف الطريق، سوف يظل لغز السيارة الشبح عالقا في حناجرهم.

كان اعتراف أحمد د. يدعم اعتراف العم سعيد ت. الذي يعتبر مصدر المعلومات الخصب للهمج فلم يعودوا يعرفون في أي اتجاه يقودون الاستجوابات.

كان يتواجد رجلان في القبو يعرفان المزيد. من هما؟ بعد تفكير استنتجوا شخصين وهما: الأمير بلقاسم ب. وأنا المواطن المتواضع والمسال الذي لا يشكل أي تهديد، هذه الحركة التكتيكية هي نتيجة التدريب والمعارف النوعية المكتسبة

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

في الخارج قبل التحدي المسلح لدولة قطاع الطرق والذي تم التخطيط له وتنظيمه قبل فترة طويلة من ظهور الأحزاب السياسية في عام 1990.

كان الجزائريون يسافرون في جميع أنحاء العالم ويدخلون في علاقات من جميع الأنواع، اهتمت دائرة الاستعلام والأمن المسؤولة عن أمن الأمة أن تعمل مع أتباعها من الجمارك على مصادرة الملابس أو العملة الصعبة من المسافرين في الموانئ والمطارات حين لا تكون مشغولة بالتدخل في الحياة الخاصة للمواطنين أو التنصت على هواتفهم.

تم التخطيط لحيلة الإلهاء في الطابق الأرضي مع الأمير بلقاسم ب.، حيث قررنا أن نعطي عن طريق الخطأ معلومات أخرى ضخمة بعد دخول العم سعيد ت. بشبح السيارة بيجو 504.

قرر الأمير بلقاسم ب. في نهاية المطاف التضحية بنفسه لخلاص المجموعة بأكملها الذين كانوا متهمين في القضية التي قادها.

لا أجروا على وصف كل المعاناة التي عانيت منها شخصيًا في أقبية ضباع دائرة الاستعلام والأمن لأنني لا أزال أعيشها كلما أغمضت عيني وسأعيشها بقية حياتي، فمجرد ذكر اسمي مرتبطا باسمهم يحيي في روحي أبشع أصناف الإهانة والإذلال لدى الرجل، أنا بصدد رواية ما حدث مع إخواني لأنها نفس المعاناة التي تكررت كثيرًا وذاقتها جميع نزلاء ثكنة عبلة (عنتر سابقًا) في بن عكنون.

بعد مرور ساعتين عبر أحمد د. مدخل الطابق السفلي غير متضرر على الإطلاق ولم تحترق سوى لحيته الحمراء بمكواة اللحام كما مرت أردافه عبر نفس

الحديد الساخن، بشيء من الفخر أو ما برأسه لي بمعنى أن «المهمة قد أنجزت» فتنفست الصعداء.

أكثر ما أود أن أحكيه للقارئ بنزاهة حول استجوابي عن السيارة المختفية هو كلمات ذلك الضابط الذي كان مقطوع الإصبعين برصاصة من بندقية محشوشة حيث قال لي: «إذا أعطيتني تفسيراً معقولاً لاختفاء سيارة بيجو 504 السوداء على الطريق، أعدك بأنك غداً ستعرض على النائب العام» مما يعني ترك مركز عجلة والهرب من خطر الموت الذي يثقل كاهلي.

كان يمكنني أن أقدم إجابة صحيحة ومقنعة لكن تقييم نتائج الجواب لم يكن إيجابياً ولا تعمل لصالحى كما يمكنها إلحاق أضرار جسيمة بخلايا الدعم ومعارفنا بالمنطقة.

و أمام ممسكى بالصمت تقدم نحوي ليهمس في أذني:

- أليس محمد علال من كان سائق السيارة؟

- لا، لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

- وموح ليفي، هل تعرفه؟

- نعم، سمعت عنه.

في اليوم الموالي حضر كبار رؤوس المخابرات لحضور استجوابنا حول الاختفاء الغامض لسيارة بيجو 504، بالفعل لقد تبخرت في الطبيعة دون ترك أي أثر لكننا علمنا لاحقاً أنها تعرضت لوابل من نيران الكلاشينكوف من الورا، لكنها لم تتوقف، دون أن أكون رأساً كبيراً في المخابرات فإن هذا المؤشر يكفي لتوضيح مستوى ومؤهلات العدو الذي نواجهه.

كما توقعت مما تم استدعائي بشكل استعجالي إلى غرفة «التحضير للموت» لتأكيد اعترافات رفيقاي الاثنين حول تلقي سائق السيارة السوداء الشهيرة بيجو 504 لكمية من المتفجرات وبندقية القنص من قبل أسبوعين من اعتقالنا.

تم تسجيل اعترافي على الفور، ودون أضرار عدت إلى مكاني في زاوية من غرفة الطابق الأرضي، بدأ الوقت بنفد وكان على أغبياء مركز عيلة أن يحضروا ويرتبوا تقاريرهم المستوحاة من اعترافات كاذبة ومُصاغة دون تحقق.

الجلسة الثامنة:

اليوم الأحد 27 كانون الأول 1992؛ وصول شاحنات ضخمة تابعة لوزارة الدفاع الوطني في إطار ما أظنه التحضيرات والاستعدادات تتم بوتيرة قصوى مما ينتج عليه صرير لا نهاية له وضوضاء تأتي من كل مكان تُبقي عقولنا يقظة وتستنفد طاقتنا، وصول طاوولات وكراسي وغيرها، فعلى ما يبدو فإن الجلسة ستكون اليوم مشابهة لجلسات النازيين تحت إشراف أدولف هتلر، حيث ستقام الجلسات على شكل أسئلة وأجوبة احتراماً لفخامة الجنرالات الحضاريين منقذي الجمهورية وتحت أعينهم المشفقة وقلوبهم المراعية لنا نحن الشياطين المسكينة التي ضلت طريقها.

لا بد أنه سيتم تصميم وتهيئة قاعة خاصة لهذه المناسبة حيث تم نقل الأثاث لإفساح المجال للكراسي والطاوولات المخصصة لمؤخرات الجنرالات الشخينة.

منذ الساعة 9:30 صباحاً، اصطفينا نحن الأربعة: الأمير بلقاسم ب. والعم سعيد ت. والأخ أحمد د. وأنا معصوبي الأعين خلف ستارة سميكة في نهاية مكتب كبير به ثلاثة كراسي للمحققين.

بدأت الجلسة بالتحية العسكرية باللغة العربية وهو ما وجدته مضحكا في مثل هذه المناسبة، أسلوب الاستجواب يثير التناقض في قيم هذه المؤسسة العسكرية فلغة التواصل ليست هي نفسها في جميع مستويات التسلسل الهرمي: الرؤساء وكبار الضباط يتحدثون باللغة الاستعمارية أما المدراء وصغار الضباط فيستخدمون اللغة العربية، والعمال والمجندون يستخدمون لهجتنا الوطنية فتحسب أن وزارة الدفاع الوطني مؤسسة تابعة للجزائر الفرنسية.

تم طرح العديد من الأسئلة علينا خلال ثلاث ساعات بطريقة عفا عليها الزمن حول سيارة بيجو 504 السوداء ومستخدميها.

كان الأمير بلقاسم ب. ذو خبرة جيدة من حيث إدارة الموقف واستراتيجية المجموعة في ظل هذه الظروف تفوق بكثير جميع مهاراتهم المشتركة مما يثبت أن رحلته وتدريبه في الخارج لم يكن عديم الفائدة.

أجابهم بثقة كبيرة بالنفس وبطريقة مخادعة ذكية مدعيا أنه لم يلتق أبدا بسائق السيارة لكنه يعرف هوية صاحبها لأنه ركب معه عدة مرات في تلك السيارة التي هي ملك ابن أحد شخصيات النظام وهو رئيس الحركة الإسلامية المسلحة التي أسسها المجاهد الأسبق الراحل مصطفى بويعلي وهو عبد القادر الشبوطي.

لم يتم العثور أبدا على سيارة بيجو 504 السوداء، المعروفة لدى الجماعة المسلحة ومصالح المخابرات وباسم السيارة الشبح، لم يتم تحديد هوية سائقها الذي اخترق بها حاجز الدرك حتى يومنا هذا، العديد من شهود السنوات الدموية يُلَمَحون إلى أنه ربما لا يزال على قيد الحياة ويعيش حياة هادئة تحت أنوف عملاء دائرة الاستعلام والأمن.

بعد أن ألقى الأمير ذلك الاعتراف سادت الدهشة وجوه الجميع وبرزت عيون الحثالة من الدهول وأصاب الشلل الجنرالات السمين الغليظة في مقاعدهم، كما تفاجأنا نحن كذلك من تأثير القبلة التي أقيت وسط أرض العدو ونحن نعلم جيداً أن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً فابتهجنا برواية رؤوس القروود المبتسمة.

بعد مرور وقع المفاجأة تمت إعادتنا إلى القبور كالعادة باستخدام القوة وظل الأمير بلفاسم ب. في الحبس الانفرادي، لقد قلب كل تقديراتهم الاستراتيجية رأساً على عقب وهو ما يعني بلغة عصاة الزبانية لدائرة الاستعلام والأمن التشكيك في «الاستراتيجية» المستخدمة.

بالنظر إلى هذا التغيير غير المتوقع في «استراتيجيتهم»، فمن الواضح أن مجموعتنا ستكون قادرة على الاستفادة من استراحة قصيرة.

في صبيحة يوم الإثنين 28 كانون الأول 1992 لم يكن هناك صخب وضوضاء كبيرة، ولكي لا يخرجوا عن روتينهم المعتاد تم تجهيز شاب من باب الواد، والذي التقيته لاحقاً في سجن لامبيز، لأحدى الجلسات مع الجلادين، تمّنت له ضرباً مثل الضرب الذي تلقّيته في جلستي الأولى والذي يمر منه أي شخص معتقل في وكر الشياطين هذا.

تمّ النداء عليه باسمه وإن لم تخني الذاكرة فإن اسمه الهاشمي يبلغ من العمر 29 عاماً وهو أستاذ لغة إنجليزية.

في أول مواجهة لي مع الجلادين كنت مرعوباً من عدد أزواج الأرجل ورائي، بعد سؤالين أو ثلاثة فقط تمّ رفعني والإلقاء بي في الهواء، وعندما سقطت انهالت عليّ الركلات في جميع أنحاء جسدي، وهناك أيضاً فقدت اثنين من أسناني.

جلسات التعذيب

خلال المجموعة الثانية من الرفسات انزلق سلاح أحدهم وسقط كما لو أنه تحت تأثير مغناطيسي بين يدي، ذب الذعر بين عملاء الرعب لأن الخوف يغير المعسكر عندما ينتقل السلاح للطرف الآخر، أمام تفاجئهم المقترن بترددي أملت عليّ الحكمة والفطرة السليمة وضع السلاح أرضاً.

طال استجواب أخينا الهاشمي، وكلما طالت فترة غيابه كلما زاد خوفنا عليه، لا نعرف شيئاً عن نشاطه أو أسباب اختطافه، كنا ندعو من أجل أن يهون عليه الأمر قدر الإمكان في هذا المحتشد السري للمعلقين بين الحياة والموت.

وأخيراً عاد دون علامات ضرب علي وجهه لكنه كان يبدو عليه التعب والاكتئاب علي وجه خاص وكأنه لم يعد مهتماً بشيء، ذهب مباشرة إلى ركنه ليجلس علي الحائط ويشي رأسه بين ركبتيه، لم يجروا أحد علي الاقتراب منه فلا أحد يعرفه ولا أحد متورط معه، بقي علي حاله التأمل لفترة طويلة حتى حلول الليل.

مكث معنا يومين آخرين قبل نقله إلى مكان آخر، ربما الحقوه بمجموعته ففي بعض الأحيان يتم انتظار القبض علي أصدقاء لك لجمعهم معاً في نفس الغرفة أو الزنزانة اعتماداً علي تقدم التحقيقات وعددها.

بعد بضعة أشهر، وجدت الشاب الهاشمي في فناء السجن الذي كنت فيه وهو سجن لامبيز، كان هادئاً وصامتاً غير اجتماعي علي الإطلاق. كل يوم، يمشي مثل الروبوت نحو وسط الفناء ليقف بشكل مستقيم مثل إشارة المرور وبدون تعب يظل يتبع دوران ظله أو حركة الشمس، لا أعرف بالضبط كيفية التعامل معه، فلا يوجد نزيل يعيره أي اهتمام لأنه أصلاً يرفض تبادل أطراف الحديث.

بما أنني كنت أعرف بأي محطات مرّ للوصول إلى سجن لامبيز في هذه الحالة، كنت مقتنعا أنه تعرض لفظائع مهولة، حاولت جمع معلومات عنه بين المحتجزين الشباب فوجدت شابا من باب الواد يعرفه فأخبرني ما حدث له في عيلة (عتر سابقا)، لقد تعرض للتعذيب بسبب دروس اللغة الإنجليزية التي أعطاهم للطلاب الصغار في المنزل، لقد جربوا كل طرق التعذيب الكلاسيكية عليه: العصا، الكهرباء، المسححة المبللة... إلخ. في النهاية، كسروا عضو رجوله مرتين بإغلاق درج مكتب على أعضائه التناسلية تحت وطأ الركلات. باستثناء القيام بعملية جراحية كانت حالته ميؤوسا منها.

ولختام هذا الفصل حول التعذيب المنهجي لفخامة الاستعلامات والمخابرات الجزائرية، سأروي كيف قام هؤلاء الرجال المروعون المنيوذون ذوو السلوك اللاإنساني باعتقال شاب يبلغ من العمر 19 عامًا بالقرب من قاعة الصلاة في حيه أين كان يأتم الناس لصلاة العشاء.

كان أمين شابا وسيما جدا ونظيفا بملامح رقيقة تم رميه في منتصف الطابق الأرضي حوالي منتصف الليل مرتديا قميصه الأبيض في مكان ترفض حتى الكلاب البقاء فيه، حيث كانت الأوساخ وسوء المعاملة والقمل ورائحة البراز والبول وخاصة البرد والجوع والعطش وحتى المرض يتربصون بنا في كل مكان، فلقد عشنا في ظروف مشابهة تقريبا أو أفضل قليلا للمحتجزين اليهود في محتشدات أوشفيتز.

تم إطلاق سراح الشاب أمين في الأخير بعد فترة طويلة من الإساءة إليه من طرف أولئك المدمنون على الجنس الشرجي من دائرة الاستعلام والأمن، ثلاثة

منهم استغلوه جنسياً لإشباع غرائزهم الحيوانية ليس لشيء سوى تعليمه كيفية التسكع مع الإسلاميين وإمامة صلاتهم.

لطالما اعتقدت أنه إذا كان بإمكانني استخدام الكلمات الصحيحة والمعبرة فإن الناس ستفهم وتكافح من أجل تغيير الأوضاع وتنظيف العدالة التي تعمل بموجب الأوامر والمطالبة بوضع حد للإفلات من العقاب أينما يتم انتهاك حقوق الجزائريين.

أنا أحد الناجين من بين الآلاف من مئات مراكز الاعتقال السرية أو تلك المعترف بها مثل مراكز الشرطة والدرك المنتشرة في جميع أنحاء التراب الوطني، لا يجب أن يظل تاريخ حرب الجزائرلات وضحاياهم محاطاً بالغموض إلى أجل غير مسمى كما يجب الإجابة وتوفير معلومات تخص العديد من الأشخاص المعروفين اليوم باسم «المفقودين»، كان المواطنون يُختطفون من منازلهم ليلاً سواء كانوا معارضين أو أبرياء ليتم تسليمهم إلى كتائب الدرك قبل بزوغ الفجر، وفي منتصف النهار تأتي فرق الموت لتجمع معتقليها الذين يقومون بدفنهم أحياناً أحياء في مقابر جماعية محفورة مسبقاً أو يتم توجيههم إلى مراكز اعتقال سرية ليظلوا هناك مدى الحياة.

بحسب معطيات رسمية يجب التحقق منها حيث تم اختطاف أكثر من عشرين ألف جزائري من منزله بتعليمات من القيادة العسكرية العليا مماثلة لتعليمات أدولف هتلر في مدامات «الليل والضباب» والتي كانت ترمي إلى القضاء على «المخربين» وجعلهم يختفون إلى الأبد، وظلت أمهات المختفين تطالب بلا كلل بالحقيقة حول مصير أطفالهن على مدى ستة وعشرين عاماً.

ربيع الإرهاب في الجزائر - شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

من بين هؤلاء النساء الشجاعات اللواتي وضعن الخوف جانباً ورفضن ضغوطات وابتزازات الشرطة، نذكر والددة أمين نتاش التي أصبحت تشكل تهديداً جديداً ضد نظام سلالة بوتفليقة المنغطسة.

أم أمين نتاش شخصية ملهمة للحيل الجديد من النشطاء الأحرار، فهي أم ترفض الصمت ثم اختطاف ابنها القاصر في 27/2/1996. ترتدي خمارها على رأسها وتحمل حقيبة على كتفها وصورة ابنها في يدها لتكون حاضرة في جميع الساحات العامة كرمز لتحدى الطغمة العسكرية والمطالبة بـ «حق الذاكرة وظهور الحقيقة وتحقيق العدالة» لجميع المفقودين.

أم أمين نتاش وباقي الأمهات مقهورات من الغضب والحزن، فبأي حق يمكن أن يأخذ طغاة طاغارين دون عقاب أثمن هدية عند الأم وهو طفلها؟ كما أنهم مدركات أيضاً بالمخاطر التي ينطوي عليها فضح الطغاة الذين ما زالوا في السلطة فتكرّم من بإعفائنا جميعاً من ربط أنفسنا بتضحياتهم.

حين بدأت كتابة هذه المذكرات كنت أبلغ من العمر 64 سنة لكنني تخلت عن الكتابة لأنني لم أستطع الحصول على دعم رفاقي الذين يرفضون بعناد شديد عرض قضيتهم على الرأي العام وهم مستمرون في الرفض إلى يومنا هذا.

اليوم وأنا متقاعد أعيش تحت سماء أقدم ديمقراطية في العالم ومن خلال هذه المذكرات المتواضعة الآتية من أرض اللجوء التي استقبلت مئات العائلات الجزائرية، أحث إخوتي الباقيين على قيد الحياة ورفاقهم على تحرير ضمائرهم وإطلاق العنان لمشاعرهم من أجل الوفاء بالعهد تجاه جميع الضحايا وأطفالهم وآبائهم وأقاربهم.

أنا أعلم أن وصمة الإذلال والإهانة التي ما زلنا نحملها جميعا حتى لو لم تعد رثية للآخرين فهي باقية في ذاكرتنا لا تمحى بسهولة، لكننا نعتبر آخر الناجين من جحيم الجنرالات وعدونا ليس بقليل، وواجب نشر الحقيقة لتحقيق العدالة نطلب منا أن نقدم شهادة الحق حول الأحداث التي عشناها بعذابيها، كما يطالبنا بعدم ترك صفحات بيضاء جبانة في تاريخ العشرية الدموية المزور على يد الشرطة السياسية ووسائل إعلامها وقضاائها، جلسات التعذيب الواردة في الصفحات السابقة تعكس بإيجاز أوضاع آلاف الشباب الجزائريين الذين تم احتجازهم في مراكز التعذيب التابعة للمؤسسة العسكرية.

كان الشباب الجزائري يختفي في غموض أو يموت بوحشية في سرية تامة، والبعض الآخر محكوم عليه بأحكام قاسية يقبع حتى يومنا هذا في سجون الطغاة دون حقهم القانوني في الطعن في الأحكام وفي عزلة تامة وتعتيم تام من قبل صحافة نظام ليس لديه ما يفرقه عن النظام النازي.

الأمير ب. بلقاسم

من بين المتهمين في مجموعتنا بتقديم المعرفة والمساعدة اللازمتين في تصميم الهجمات الثلاث بمطار الجزائر ووكالات الخطوط الجوية الفرنسية والسويسرية كان الأمير بلقاسم ب.، هو الأكثر طلبًا في الاستجوابات والأكثر عرضة للتعذيب، بقينا معًا في نفس الزنزانة في سجن بربروس لمدة ثلاثة أشهر فأخبرني بجميع أسرارته وكل ما تعرض له من سوء معاملة جسدية ونفسية مهينة ومشينة منذ اعتقاله في وهران كما لو كان لديه شعور بأن نهايته باتت قريبة، كما تحدث إلي بإسهاب عن مرضى الجنس الشرجي على مستوى جميع الهياكل المستيرة في هذه الدولة العسكرية.

بدأت جلسته الأولى مع التعذيب في ماجنتا وهو مركز للشرطة السياسية يعادل كافينياك في الجزائر العاصمة، كان نقله إلى عيلة (عنتر سابقًا) يتطلب استخدام سيارات عادية من أجل ضمان أقصى درجات الأمن، كما شاركت في العملية جميع مراكز الشرطة والدرك المهمة على طول الطريق، خطورة الأمير بلقاسم المضخمة بشكل مروع كانت مصدر كل أنواع التعذيب في كل محطة.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

خلال الأيام الثلاثة من الرحلة وفي كل محطة يتوقف عندها، كان إما يتم تعليقه بالأصفاد إلى الأنابيب المارة على طول الجدران، أو يتم تقييده ويدها خلف ظهره وملقى على أرض مشبعة بالمياه مما يمنع عنه النوم، كان الضباط الكبار يتدفقون من كل مكان إلى الكنائس أو مراكز الشرطة بفضولهم متحمسين لرؤية أمير من الجماعة الإسلامية المسلحة، كما أنه تعرض للركل والسب والبصق والتبول عليه إضافة إلى تجريده أحياناً من ملابسه كاملة بغرض الاعتداء عليه جنسياً.

يعمل عرين دائرة الاستعلام والأمن عيلة (عنتر سابقاً) بين عكنون في الجزائر العاصمة كشكنة عسكرية عادية، خلف تلك الواجهة الخارجية المخادعة لا يدرك عامة الناس أن هناك مركزاً يحتضن أقبية وزنزانة للإبادة مكنتة بمئات المعتقلين الأبرياء، في أسوأ الأحوال كان الإسلاميون أو المتعاطفون مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ يتعرضون للتعذيب أو القتل بأشنع طرق التعذيب، والأمير بلقاسم ب. يعتبر من بين الرجال الأقوياء الذين نجوا بحمد الله تعالى.

لكن السؤال الذي يجب طرحه هو: منذ استقلال الجزائر كم عدد الجزائريين الذين مروا بهذه الاستجوابات تحت وطأة أساليب تعذيب تعود للعصور الوسطى؟ العديد من الشخصيات التي من الجيد أنهم بفضل الله خرجوا جميعاً على قيد الحياة، لكن كم سيكون عددهم إذا راجعنا محاضر مراكز الاعتقال السرية هذه منذ أحداث 1988؟ ومن هم مرتكبي تلك المجازر لو راجعنا أرشيف وزارة الدفاع الوطني؟ ستقولون أنه يتعين علينا الحصول على موافقة فرنسا قبل ذلك طبعاً.

لن أكون مبالغاً إذا أكدت أن التقديرات تتجاوز بضعة آلاف مع العلم أن النظام كان يلجأ دائماً إلى الإعدامات المستهدفة خلال السبعينيات، وفي

الماضي القريب جدًا استغل النظام مؤسسات الدولة في التعذيب والاختطاف والإعدام على نطاق واسع على يد عناصر الجيش والدرك والشرطة وبتعبير أدق ميليشياته المسلحة.

نظرًا لاكتسابه لقاعدة متينة من التربية الدينية، كان الأمير بلقاسم ب. في الاستجابات يجمع بين تبني جميع الأعمال التي وقعت تحت مسؤوليته، والإجازة فيمن يمكن أن يضر بالجماعة أو أي عنصر من عناصرها وخاصة الأعمال المستقبلية أو المخطط لها مسبقًا.

من أجل تحويل الاهتمام المستمر بنا ونحن بين أيديهم كان من الضروري تشتيت انتباههم وتحويله نحو سمكة أكبر خارج أسوار المركز لذلك بدأ بذكر أسماء ثقيلة من مجاهدين إرهابيين وهم نفس الأشخاص الذين حضروا تجمع تمزقيدة وأعطوا الضوء الأخضر للعمل المسلح، أدى هذا الاعتراف غير المنتظر إلى الإطاحة بكبار الشخصيات البارزة والعملاء المزيفين، تمت مقاطعته عدة مرات وكان عليه أن يكرر كلماته في كل مرة، كان قد أشار إلى المخابرات الأجنبية من خلال ممثلياتها الرسمية في الجزائر، وقد وصف بدقة وتفصيل المعلومات التي كانت بحوزتهم مسبقًا بل وذكر أسماء لم يرغبوا (دائرة الاستعلام والأمن) في الكشف عنها في جلسات التعذيب مما ساعدهم في النهاية على فكّ خيوط قضايا أخرى أكثر خطورة وأهمية.

كان الأمير قد تحدث عن لقاءاته مع عبد القادر الشبوطي ومنصوري ملياني ومحمد علال وجعفر الأفغاني ومدني مزراق وشريف قوسمي وأمير فرع التيار القطبي بمنطقة الغرب بالإضافة إلى تفاصيل جولاته بناحية وهران.

ربيع الإرهاب في الجزائر - شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

خلال الأيام العشرة التي لم نر فيها الأمير بلقاسم ب. مرة أخرى لم تتعرض للاستجواب أو التعذيب، لقد دفع الثمن بدلا عنا حيث كان يتم نقله واستجوابه كل يوم في أماكن سرية مع محققين مختلفين، قام بتقديم معلومات وحقائق يمكن التحقق منها ولا يمكن تتبعها بسبب سرعة تنابعها مع الوقت، في آخر المطاف قرر رؤساء الغاشمين حفظا في السلاجة ووضعنا تحت تصرفهم في سجن بربورس.

علمت منه لاحقا أن اجتماع في ممزقيدة قد تعرض لهجوم مروحي عند الفسق وأن بعض المشاركين أصيبوا من بينهم عبد الرحيم حسين.

كان هو ومحمد لفيبي قد تنقلا بسيارة تم الاستحواذ عليها من شخصية سياسية قريبة جدًا من الجنرال توفيق، وخلال الهجوم لجأ كلاهما إلى تجويف صخري حتى الصباح.

حوالي الساعة 10 صباحا، مروا لأخذ سيارة باصات كبيرة لدى أحد السكان في الجوار وتوجهوا إلى الجزائر العاصمة، في الطريق تم توقيفهم عند حاجز للدرك فقام بلقاسم ب.، والشخص الراكب معهم بشحن أسلحتهم لأنهم كانوا من نوع الرجال المصممين على استعداد دائم للقتال، لكن محمد لفيبي كان هادئا، كما يفعل أمير حقيقي، فأمر الإخوة بعدم القيام بأي تصرف وأنه سيهتم بالأمر، عند تقدمهم من أول دركي في الحاجز أوقف السيارة وأنزل زجاج نافذته، قام الدركي بإلقاء التحية وطلب أوراقهم فأجاب محمد لفيبي: «زميل! نادي الضابط المسؤول» وهو يلوح ببطاقة مهنية بين أصابعه.

على الفور جاء ضابط شاب برتبة ملازم لإلقاء التحية عليهم فرد عليه محمد لفيبي بدوره بكل هدوء ولوح ببطاقة مزيفة لعميل سري بمركز عيلة (عثر

الأمير عبد يلقياسم

السابق) وتبادل معه حديثا وجيزا حول ما حصل في الليلة الماضية ثم ودّعه لتنتقل السيارة باتجاه الجزائر العاصمة وبالتحديد منطقة جسر قسنطينة منصة انطلاق شريف قوسمي وجمال زيتوني.

كان عدد المعتقلين يزداد بمقدار عشرة أفراد كل يوم، تسارعت وتيرة جلسات التعذيب لدرجة أننا لم نعد نهتم لا بالوقت ولا بمن لم يعد، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد من تعداد «المفقودين» أو «أفراد الجماعة الإسلامية المسلحة الزائفة الجديدة»، لا أحد يمكنه التكهن؟

سوف يتساءل القارئ لماذا ذكرت «أفراد الجماعة الإسلامية المسلحة الزائفة الجديدة» سأورد الإجابة لاحقا بالتحدث عن تلك التشكيلات العسكرية التابعة للدولة التي استبدلت البدلات الخضراء وحلق الذقن بارتداء القشاية وتطويل اللحية.

في أحد الأيام ذو صباح جميل سيبقى محفورا في ذاكرتي إلى الأبد تقدم شاب بزي مدني يرتدي ربطة عنق وقميصا أبيضاً ليفتح بكل هدوء بوابة الطابق السفلي يحمل بين يديه وثائق وأوراق.

بما أنني الأول في قائمته قام باستدعائي لأمثل أمامه فطلب مني رفع الوشاح عن عيني والنظر إليه، كان شابا بملامح طالب خجول، بلهجة محسوبة نصفها كلمات ونصفها إشارات سلمني محضر الإفادة.

- اقرأ ووقع المحضر.

- لا أستطيع القراءة، الجو مظلم هنا.

- يمكنك مغادرة هذا المكان إذا قمت بالتوقيع.

- أوقع دون روية المحتوى؟

- هنا وقع وأخبر أصدقاءك أن يوقعوا دون طرح أسئلة.

شعرت من نبرة صوته برغبة صادقة في رؤيتنا نترك عرين الموت هذا، لذلك توكلت على الله تعالى ووقعت. لا بأس، فليكن، لا يوجد أسوأ من مركز عبدة (عنتر سابقاً) للموت.

عدت إلى مكاني في القاعة ونصحت رفاقي بالتوقيع دون تردد لأنه قد تسع فرصة تقديمنا في ذلك اليوم أمام المحكمة.

وبالفعل تم نقلنا بعد ساعة داخل شاحنة شرطة، كانت أيدينا موثوقة بالأصفاد وراء ظهورنا ولم يكن سوى عميلان من عبلة مسؤولان عن العملية وبما أن الرائحة التي كانت تنبعث منا كانت كريهة وغير محتملة لم يكونا قادران على الاقتراب منا.

خلال الطريق بين بن عكنون ومحكمة عبان رمضان فهمت السبب وراء عدم تعريضنا عمدا لجلسات التعذيب خلال العشرة أيام الأخيرة من احتجازنا لأنهم كانوا يريدون تقديمنا أمام وكيل الجمهورية. بمظهر على الأقل يشبه الإنسان ووجه لائق لا تشوبه ضربات أو كدمات.

عند الساعة العاشرة وصلنا إلى قصر العدالة بعبان رمضان حيث يعمل قضاة المحاكم الخاصة، هؤلاء القضاة تم إجبارهم لاحقاً على العمل دون الكشف عن هوياتهم وراء أقنعة، تم عرضنا على المدعي العام وتم سماع قراءته تحت تهديد

الكلاشينكوف خلف رؤوسنا بحيث نواجه أحد عشرة تهمة أحكامها تتراوح بين السجن لمدة خمس سنوات والإعدام.

تم غلق الملف بسرعة ليتم إرسالنا مباشرة إلى سجن بربروس على الساعة 5 مساءً، كان استقبال درك باب جديد وحراس السجن عدوانيًا للغاية فكان التعنيف والوحشية جزءًا من مصيرنا، تم حلق اللحى والشوارب مع ركلة هنا وصفعة هناك، تم وضعي أنا وثلاثة إخوة في زنزانة بها شقوق كبيرة مليئة بالنباتات الكثيفة، واضح أنها كانت مغلقة منذ رحيل الدرك الفرنسي ولم تُفتح حتى وصولنا، زنزانة ميتة منذ إعدام آخر شهيد كان يسكنها ويبدو أنها كانت تنتظرنا لإعادتها إلى الحياة أو بالأحرى تأهيلها من جديد.

من بربروس إلى لامبيز

امتدت فترة اعتقالنا بسجن بربروس من 19 يناير إلى 28 مايو 1993، في ظروف مزرية وقاسية تحت حراسة مشددة وقيود صارمة لكننا كنا نحاول التعافي من حالة الهزال التي كنا نعيشها وهو ما كان أولويتنا، كان علينا استعادة قدراتنا الجسدية والعقلية لمواجهة قضية المحاكم الخاصة التي أنشأتها حكومة عصاة جنرالات انقلاب يناير حيث بدأوا حملة إبادة طويلة الأمد ضد النشطاء والمتعاطفين مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ وأقاربهم.

كان الجنرال خالد نزار ومحمد مدين واسماعيل ومحمد العماري ومحمد التواتي يشكلون الطغمة العسكرية التي أطاحت بالرئيس الشاذلي بن جديد وعهدت بالحكومة إلى الحركي سيد أحمد غزالي، للقيام بالقضاء على «الإسلاميين» وسحق أي صوت من شأنه أن ينهض ضد القرارات الديكتاتورية للمجلس العسكري، ولقد قام الوغد بتنفيذ تلك الأوامر المتوحشة على أكمل وجه.

دامت محاكمة تفجير المطار 25 يومًا، بغض النظر عن السلوك العدواني لبعض الحراس مثل ذاك المدعو «رتيلا»، الذي كان فيه بذرة جنونية شريرة وهو أقدر وأرذل عنصر من أذناب رجال الدرك والشرطة.

ربيع أم ركبته
كل صباح صنع الله في شهر مايو 1993 كانوا يُذيقوننا عقاباً بشكل منتظم
تحت أعين المسؤولين، كان الذهاب والإياب من وإلى المحكمة مزعجاً أحياناً
لكنه أعطانا أيضاً الفرصة للتعارف، ذات يوم طلب مني رشيد حشايشي طيار
في الخطوط الجوية الجزائرية تكبيل أهدينا معاً للتعرف على بعضنا البعض بشكل
أفضل، لقد أمضينا وقتاً طويلاً من تلك الجلسة المملة في ذلك اليوم نتسامر
بعيدا عن السيناريو الذي كان يُعرض أمامنا الذي كان فيه الأحكام والعقوبات
محضرة مسبقاً.

كما شهدنا كذلك على موقف رجل شهم ذو طبع حاد وعنيد لا يعرف الخوف
إليه سبيلاً والذي تجاوز كل حدود الشجاعة خلال المحاكمة لذلك سأروي هنا
ما حدث بين منصوري ملياني وقائد الدرك، في محيط محكمة سيدي محمد، الذي
ناداه من وراء ظهره:

- «إي، هل أنت ملياني الشهير؟

فاستدار ملياني ليرد عليه:

- نعم، هذا أنا، وماذا في ذلك؟

- آه، إذن هذا أنت، يا ابن العاهرة.

- إنه أنت ابن العاهرة، أنظر إلى حالك لا تملك حتى نفسك أيها العبد.

- خذ هذا! وبصق في وجهه.

مسح ملياني بيده التي يمكنه تحريكها وجهه، ورغم أنه كان يتحرك بصعوبة
لأنه كان مصاباً برصاصة في قدمه إلا أنه تقدم من الضابط متكئاً على عصاه
وعينيه تُشعّ حدة ولسانه الشجاع قال له:

- أنت جبان لذلك تهاجم سجيناً هكذا.

وعلى الرغم من صعوبة الأمر استطاع أن يُوصل بصقة كبيرة من فمه لتغمر وجه القائد القبيح.

كان رد الفعل عنيفاً من الدركي الذي تمت إهانته أمام الملا والذي فوجئ بشجاعة ملياني فانقلبت قاعة المحكمة رأساً على عقب حيث تجمع حشد كبير حولهما من جميع موظفي سلك الحركي ولم تهدأ الأوضاع سوى بتدخل القاضي الذي أمر بفك المشاحنة، لم يتم سرد الحادثة من قبل وسائل الإعلام أو من قبل المحامين المتدينين للقضية.

لو بدأ جميع المعتقلين السابقين الذين لا يزالون على قيد الحياة بسرد المحن التي عاشوها، ولو حتى القليل منها، فإن الشكوك التي تحوم حول مرتكبي إرهاب الدولة ستنجلي ليتضح من كان الإرهابي الحقيقي.

إن المؤسسة العسكرية بجميع قواتها المسلحة وقوات الشرطة والدرك والميليشيات الخاصة قد خططت ونظمت ونفذت بشكل غير قانوني قمعاً منقطع النظير، ليس فقط ضد عائلات عناصر الجماعات المسلحة ولكن أيضاً وقبل كل شيء ضد نشطاء المجتمع المدني وحقوق الإنسان والكتاب والصحفيين والفنانين والطلبة وأي فرد يشتبه في تعاطفه مع من يعتبرونهم أعدائهم.

إن سجن بربروس بكل سوء المعاملة فيه وصغر حجم الزنانات واكتظاظها، وهي ظروف تتميز بها كل السجون الجزائرية، لا يمكن مقارنتها مع الكابوس الذي عشناه بمركز عبله (عنتر سابقاً) لذلك كان بربروس بمثابة وجهة أحلامنا.

بعد خمسة وعشرين يوما من جلسات الاستماع تم النطق بالحكم. كانت عقوبات ثقيلة من بينها سبعة أحكام بالإعدام وبراءة واحدة فقط لمحمد متلو منهم بأنه صديق وسانق الشيخ عباسي مدني، مجاهد سابق أطلق سراحه واغتيل لاحقا في مسرحية فبركتها الأجهزة السرية لدولة قطاع الطرق، اشتهر بنشاطه التجاري أكثر من علاقته بالشيخ عباسي مدني إذ كان أحد المصنعين والموردين القلائل للملابس الجلدية في الجزائر العاصمة.

في الثلاثين من شهر ماي، إن كنت أتذكر بشكل صحيح، وفي الساعة 6 صباحا جاء الحارس لإيقاظنا وإخبارنا أن نستعد للمغادرة، بينما كنا منشغلين بجمع أغراضنا الشخصية كان عدد كبير من الحراس يجتمعون أيضا في الفناء الكبير لتنفيذ مهمتهم الأخيرة وهو تفتيش جسدي بشكل سيئ وفحص دقيق وصارم لجميع أغراضنا، وفي الأخير تم تقييدنا وتقديمنا مكبلين إلى كتيبة القوات الخاصة التابعة للدرك.

عبرنا واحدا تلو الآخر البوابة الموصلة إلى وسائل النقل، ومرة أخرى خضعنا لتفتيش وحشي وعنيف من قبل عناصر الدرك.

أخيرا وبعد ساعتين من التوتر دخلنا العربات ليأتي أحد العملاء في بدلة خضراء ليضيف زوجا آخر من الأصفاد لربط كل واحد من السجناء السبعة والعشرون إلى ظهور مقاعدهم، زوجان من الأصفاد لركاب عاجزين.

انطلقت العربات باتجاه القاعدة العسكرية ببوفاريك تحت سلسلة من الإجراءات الأمنية المعززة حيث لم تنقص سوى العربات المدرعة فلقد خرجت محملة بمجموعة من السجناء المصنفين شديدي الخطورة.

من هيرودس إلى لامبيز

جميع هيئات أمن الدولة كانت في حالة استنفار قصوى، وحتما قد تساءل سائقو السيارات الذين استخدموا آنذاك الطريق السيار بين الجزائر ووفاريك عن سبب قيام رجال مسلحين في سيارات الشرطة والدرك بإخلاء الطريق لحافلة تبدو عادية.

لا أتذكر ما إذا كانت نوافذ الحافلة مظلمة لكن السبب الرئيسي لعدم رؤيتنا من الخارج كان شيئا آخر، اضطررنا إلى وضع رؤوسنا بين ركبنا طوال 40 كيلومترا أي تسعين دقيقة حسب السرعة المحددة.

في اليوم الموالي كان سكان الجزائر العاصمة يتكلمون عن ذلك التشكيل «المبهر» لعربات التدخل المسلح، وكان الجميع تقريرا يفكرون في المؤامرة التي تمت حيакتها ضد الأبرياء وكانوا يحقون في ذلك فمن يدري لربما كان الجاني أو الجناة الحقيقيون لا يزالون على قيد الحياة؟ أنا شخصيا أو من بذلك بشدة، أثناء ترجمة هذه المذكرات علمت أنه حتى عام 1997 كان صانع الهجوم لا يزال على قيد الحياة.

خلال الرحلة، تعرضنا لمعاملة وحشية وسوء معاملة خاصة سعيد سوسان وحسين عبد الرحيم، لكننا وصلنا سالمين إلى مدرج المطار حيث كان طائرة من نوع هرقل س-130 جاهزة لاستقبالنا.

بمجرد الوصول إلى هناك توقفت الحافلة على بعد حوالي مائة متر من طائرة الشحن المكلفة بنقلنا إلى لامبيز مرورا بقسنطينة.

بعد التفتيش المعتاد على الأرض والذي استمر حوالي ثلاثين دقيقة تم أمرنا تحت وطأة لكمات وركلات أفراد القوات الخاصة التابعة لقوات الدرك المسؤولة

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

عن عملية نقلنا بالخروج واحداً تلو الآخر ففعلنا ذلك دون شكوى فما الذي كان
بوسعنا فعله أمام أولئك المدججين بالأسلحة؟

من أجل احتواء غضبي ضد ذلك الاحتقار الذي لا يوصف حاولت أن أتخيل
هؤلاء المتعجرفين وهم يواجهون عدواً حقيقياً يعادلهم في القوة.

كما لا نزال مكبلي الأيدي وراء ظهورنا عند نزول الطائرة. اصطلفنا مع تباعد
مترين بين كل واحد حيث كنا نحن سبعة وعشرون «إرهابياً» وهم متنا دركي
من القوات الخاصة استبدلوا الهراوات البلاستيكية أو الخشبية، كل منهم لديه
غصن شجرة في يده، فهم يستعدون لاستقبالنا بعنف، في «Branchonnade» لن
ننساه أبداً.

من ناحيتي، لم أكن أهتم كثيراً، بوحشيتهم، كنت دائماً أتحمّل عواقب
قراراتي، لكنني أعتقد أنني اكتشفت صلوات إخوتي الذين يخشون الأذى الذي
يمكن أن تلحقه بنا هذه العاهات البشرية، أصلي معهم.

فجأة سمعنا حركة إطارات سيارة تنعطف بسرعة عالية على الطريق السفلي،
متجهة مباشرة نحونا، توقفت فجأة من قبل أولئك الضباط، كانت سيارة درك
خضراء وبيضاء، يخرج ضابط وجميع الحاضرين يقفون للانتباه، يحيي رجاله
وينظر إلينا بالكفر قبل أن يخاطب الضابط الذي يقف خلفه، أنا متأكد من أنه
أعطى تعليمات أنقذتنا من المزيد من المعاملة الوحشية والمؤلمة، هذا النوع من
«أعطهم على متن الطائرة، إذا أردت، ولكن ليس على الأرض».

قام أفراد القوات الخاصة بشحننا على متن طائرة النقل بحذر شديد،
لا يسمحون بتسريع أيدينا ولو لوهلة واحدة مخافة قيامنا بفعل انتحاري، بدأوا

من بربوروس إلى لامبيز

بربطنا واحداً تلو الآخر بشكل آمن مع الحزام الذي يعبر منطقة الشحن بالطائرة،
فرّقوا أذرعنا على شكل خط قطري حيث الذراع اليمنى عالية جداً فوق الرأس
والذراع اليسرى نحو الأسفل فأصبحت الحركة شبه معدومة.

كانت الطائرة تحلق على ارتفاع منخفض وبابها مفتوح على مصراعيه طوال
الرحلة لإخافتنا أو جعلنا نعتقد أنه سيتم إلقاؤنا من الطائرة، من شدة خوفهم من
أي ردة فعل محتملة منا، وخاصة السجناء المحكوم عليهم بالإعدام، قاموا بربط
أنفسهم بعناية شديدة وبطريقة محسوبة تمنعهم من الوصول إلى باب الطائرة.

كانوا خائفين لدرجة أنهم انهالوا علينا ضرباً حتى الموت على متن الطائرة،
اعتداءات جبانة من قبل رجال مدربين على محاربة المسلحين المطلعين على قواعد
القتال العادل، وبدلاً من ذلك يهاجمون وسط السماء رجالاً غير مسلحين مقيدين
بأمان بحزام صلب.

وصلنا أخيراً إلى قسنطينة فأنزلونا ونحن منهاريون تماماً، تم نقلنا من الطائرة إلى
حافلة نقل المساجين التابعة لولاية باتنة والتي جاءت لاستقبالنا بالمطار العسكري
تحت وابل من ضربات الهراوات فوصلنا إلى الحافلة ونحن نشعر بدوار خائق،
استغرقت عملية نقل السبعة والعشرين معتقلاً أكثر من ساعة، لقد تم تطبيق
إجراءات صارمة ومشددة ضد رجال لم تكن أي عدالة في العالم ستدينهم على
ضوء الملف المؤلف من أكثر من 500 صفحة بئس.

الكابوس لم ينته بعد...

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

أدرك الحراس المرافقون لنا في الحافلة، بعد خمس دقائق من السير، أن رائحة كريهة تغزو المكان مما أجبرهم على استخدام مناديلهم أو قرص أنوفهم طوال الطريق من قسنطينة إلى باتنة.

بالنسبة لنا لم تكن الرائحة الكريهة تزعجنا إطلاقاً لأنها كانت تنبع منا ومن ملابسنا التي تفوح منها رائحة الدموع والدم والبول والقيء، ملابس مرهقة وغير قادرة على الرد على هجماتهم الوحشية بقيت فقط كحماية لأجسادنا.

يقولون إن القانون يسمح لهم بذلك كما أنه مكتوب بالأسود على أبيض في القرارات التي أصدرتها عدالة نظام جنرالات يناير.

ساعتان من الطريق مرفوقين فيها بالشتائم والبصاق وبشكل هائل، وصلنا أخيراً إلى مدينة تازولت حسب ما كان يدور من حديث بين الحراس الثلاثة حيث كان أحدهما يجلس بالقرب من السائق والآخر في المنتصف والثالث في مؤخرة الحافلة.

لم نكن نستطيع معرفة مكاننا فكل تنقلاتنا كنا نقوم بها في وضعيات غير مريحة، الأيدي مربوطة إلى ظهر المقعد والرأس على الركبتين، فحتى في وسائل النقل الخاصة بهم يجب أن يشعر المرء وكأنه في زنزانة.

دون رؤية انهماك الحراس باستعدادهم لنهاية الرحلة، أدركنا من تصرفاتهم أننا وصلنا إلى وجهتنا تقريباً وهي منطقة لامبيز حيث تم بناء ثالث أكبر سجن في العالم: صَرْخ لامبيز.

قللت الحافلة من سرعتها لتغادر الطريق الرئيسي في اتجاه السجن السابق الكبير الذي كان الجيش الفرنسي يُرسل إليه أسلافنا المخرابين، بعد بضع مئات من الأمتار توقفت أمام بوابة بنية كبيرة تتيح دخول سيارات نقل المحتجزين.

عبرت الحافلة البوابة المفتوحة وسارت ببطء في مسارها بقدر المستطاع وسط حشد من الحراس وتحت أنظار الرجال المسلحين في البوابات وأبراج المراقبة ولم تتوقف إلا بعد وصولها إلى وسط الفناء المركزي حيث كانت حصّة ضرب عنيف بالعصي تنتظرنا.

كإجراء احترازي تم تنزيل المحكوم عليهم بالإعدام أولاً يُقدرون بسبعة أفراد وتوجهوا إلى جناح خاص في السجن وهو بالتأكيد مميز للغاية، بمجرد أن ابتعدوا عن الحافلة بدأوا في تنزيلنا بوحشية واحداً تلو الآخر، شكل الحراس المسؤولون عن الاستقبال صفين متوازيين وهم مسلحين بالعصي الخشبية وأمرونا بلغتهم المبتذلة بخلع ملابسنا والاحتفاظ بها في أيدينا دون حركة أو رفع رؤوسنا أو التحادث، بداية رحلة العذاب في هذا السجن شديد الحراسة هو تجاوز ممر من 80 متراً بالحصول على أقل عدد ممكن من الضربات ودون أن نفقد ملابسنا أيضاً لأننا كنا سنبقى معزولين لمدة أسبوعين كما جئنا واجتزنا ذلك دون التعرض لإصابات خطيرة.

قبل أن أبدأ سبأقي بين صفّي الحراس رفعت عيني لوهلة خاطفة، تمكنت من رؤيته هو كتلة هائلة من الطين الباهت مرصعة بنوافذ صغيرة دا محاطة بالقضبان.

أمام هذه الصورة التي تذكرني بالساحات الرومانية التي يتنافس وسطها المصارعون والعبيد في بطولات دامية لا تمنح أي رحمة للفائز أو الخاسر مع عدم وجود نجاة في الأخير، انهارت قدراتي الجسدية والعقلية تمامًا ولم أعد أستطيع التحكم في أفكاري نتيحة للرعب الذي تنفثه بقايا مدينة لامبيسا القديمة.

كل ما ينقص لمعسكر الأعمال الشاقة هاذ هو تعليق لوحة على مدخله تحمل الشعار الزائف لحركة فرانكو في إسبانيا: «يمكننا أن نؤكد، دون خوف ودون خطأ، أن أي شخص زار سجون دول أخرى وقارنها مع سجون بلدنا، أنه لا يمكن أن تجد مؤسسات عادلة مسيحية وإنسانية مثل تلك التي أنشأتها حركتنا».

في نهاية ممر الحراس الشرفي يوجد مدخل وحدة الاعتقال المركزية التي من شأنها أن تؤوينا في الطابق الأرضي وتم توزيعنا على زنزانات فردية، على الفور أطل فريق من الحلاقين لتخليصنا من الشعر واللحية والشارب، بعدها وصل دلو ماء وبطانيتان زرقاوتان، ويد ثانية مدتنا بأوعية الطعام من الألمنيوم.

يمكننا القول إن العد التنازلي لسنوات طويلة من الطهارة قد بدأ مع هذا اليوم الأول في لامبيز.

في هذه الأماكن المروعة والمشؤومة لا يوجد أي دليل يسمح بمعرفة الوقت فقد أراد طغاة «خلاص الجمهورية» أن يمحووا تواجد الساعات والدقائق والثواني من حياتنا.

ينتهي البرنامج حوالي الساعة 6 مساءً مع إغلاق الزنازين لتبدأ حرية المحرومين من حريتهم.

غادرنا الأسوار العالية لسجن بربروس الساعة 6 صباحًا، سرنا لأميال تحت ظروف صعبة وحلقنا على ارتفاع منخفض في وضعيات متعبة ومربكة جدا لساعات طويلة، طوال رحلة اليوم بأكمله وبالإضافة إلى عدم وجود سلطة على أنفسنا، فقد تركنا بدون طعام أو ماء.

بدأت أوجاع الضربات على الرأس والأضلاع تؤلم وأصبح الجوع أكثر حدة لذلك كان من الضروري أخذ قسط من الراحة ففرشت بطانية على الأرض ووضعت حذائي تحتها كوسادة، استلقيت وغطيت نفسي بالبطانية المتبقية وإذا بي أغط في نوم عميق في أول ليلة لي في لامبيز.

في صباح اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة تم دق جرس المنبه بفعل دوي قوي لضربات على الأبواب الحديدية الثقيلة وإذا هم معتقلون في قضايا قانون عام ليصبوا لنا مغرفة من القهوة وقطعة خبز على شكل إفطار صباحي، على هذا الإيقاع ووراء تلك الأبواب المغلقة بقينا مدة أسبوعين.

بعد نهاية الفترة الابتدائية تمكنا من مغادرة زنازيننا واستنشاق الهواء النقي في فناء الاستراحة ساعتين صباحًا وساعتين في الظهيرة كل يوم.

لأكون صريحًا يجب أن أعترف أن قواعد الحرمان من الحرية في هذا السجن صارمة وتتبع حرفيا ومع ذلك يتم تسجيل بعض التجاوزات هنا وهناك والتي تُعزى بشكل أساسي إلى السجّانين العرابدة مثل واحد كان اسمه جمال الذي كان يصفع بيده اليمنى كل صباح ما يقارب مائة معتقل بشكل عشوائي، وأود ذكر شيء بهذه المناسبة وهو أنه فقد ذراعه اليمنى في حادث طريق بعد فترة من عملية الهروب.

طوال فترة العزلة، كان سجناء القضايا العامة الذين يقتربون منا بمحكم أنشطتهم يظنون أننا عملاء الدولة الصهيونية متسللون إلى صفوف الإسلاميين، لقد كانوا مقتنعين جدًا بتلك الدعاية لدرجة أنهم اتخذوا منا موقفًا لئيماً وكانوا يعاملوننا بقساوة.

ذات صباح تعرّف عليّ السجين المسؤول عن وجبة الإفطار وهو شاب ينحدر من حي روهسو الشعبي في الجزائر العاصمة، فسألني بصوت منخفض جدًا إذا لم أكن من حي القبة فأجبت بالإيجاب، أعطاني ابتسامة وكأسا مليء بالقهوة وشريحة إضافية من الخبز.

على مدار الأيام أخبرني أن الإدارة أبلغتهم عنا، مشيرًا إلى أن مجموعة قدمت من إسرائيل ودخلت البلاد للمشاركة في الهجمات وأعمال التخريب أي مجموعة كاملة من السيناريوهات السخيفة والدعائية.

لم تكن الإقامة الطويلة في لامبيز صعبة حقًا من حيث سوء المعاملة، على الرغم من بداية امتلاء السجن الملعون من العصر الروماني أكثر قليلاً كل يوم نظرا لمحاكمة عدد كبير من الجزائريين أمام محاكم خاصة سريعة، غالبية هؤلاء المعتقلين كانوا من المناطق الشرقية والوسطى.

كانت عمليات الوصول المستمرة تتيح لنا بتلقي تحديثات للمعلومات حول الأنشطة على أرض الواقع لكن كان من الضروري فرزها جيدًا للتمييز بين المعلومات والدعاية.

تلقينا الكثير من المعلومات المباشرة والموثوقة والمفصلة من خلال قاعة الزيارات على الرغم من التواجد الكثيف والصارم لحراس وظلال دائرة الاستعلام والأمن.

من بربوروس إلى لامبيز

بالنسبة لي كان هذا النظام المغلق يناسبني تمامًا فلطالما فضلت البقاء «غير مرئيا» وفعلت ذلك حقًا إلى أن اقترب مني رجل يُدعى صالح س. بينما كنا نسهر إلى قاعة الزيارات، كان ذلك قبل أسبوعين من ليلة 31 أغسطس 1993 المصرية.

في تلك الليلة، تعبت من المشي لمدة ساعتين في الفناء فأويت إلى الفراش أكر قليلًا من المعتاد، بعد صلاة العشاء مباشرة كنت نائمًا بعمق حين أيقظني فجأة صوت إطلاق نار من سلاح آلي قريب جدًا قادم من داخل السجن بكل تأكيد ففكرت في محاولة فرار دون قناعة كبيرة بذلك.

في صباح اليوم التالي 31 أغسطس 1993، كنا نتساءل جميعًا في الفناء عن حادثة الليلة السابقة، لم يكن أحد لديه أدنى فكرة لكن الأمر لم يستغرق سوى ساعة من الصبر لمعرفة ذلك، ما يكفي من الوقت لمرض السجن للحدث إلى أهالي باتنة.

حوالي الساعة 10:30 صباحًا، تم إدخال الممرض إلى الفناء فاستقر في ركنه المعتاد وبدأ في توزيع الأدوية التي وصفها طبيب السجن، حينها اقترب منه باتني ووقف بشكل يحجب رؤية الحارس وطرح عليه السؤال: «ما هي الطلقات التي سمعناها في تلك الليلة؟»

فأجابه بتدفق قصير من الكلمات وعلى دفعة واحدة كما لو كان قد أعد إجابته مسبقًا:

— تم إعدام إخوتكم المحكوم عليهم بالإعدام في تفجير المطار حوالي الساعة 2 صباحًا، كانت الدفعة الأولى من الرصاص لحسين عبد الرحيم، أما الآخرين فتم إعدامهم بالطريقة المعتادة: طلقات معدلة ثم إكمالها بشكل فردي».

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

هذه الرواية الموجزة للغاية التي أبلغ عنها نزيل يعمل في المستوصف تم إثرائها لاحقًا بتفاصيل المعاملة السيئة التي تعرضوا لها قبل الإعدام وبعده، لسوء الحظ ستخفي المنظمات المستعبدة من قضاة وصحفيين هذه الحقيقة الكاملة المتمثلة في التجاوزات اللاإنسانية التي تخترق عمداً القوانين التي ينص عليها الدستور.

وكما أوضح الحراك الشعبي في 22 فبراير 2019، فإن هذه النخبة من الأشخاص المحصنين من العوز هي من تمثل الخزان الذي لا ينضب من الرجال والنساء الذين زرع فيهم النظام الخوف والخضوع، فمن الصحيح أنه لا يمكن أن يكون هناك عملاء بدون ديكتاتورية ولا ديكتاتورية بدون عملاء.

الأخ صالح س.، الذي تحدث معي في الطريق إلى قاعة الزيارات، هو من أصل شاوي خالص من عائلة محترمة وثورية من مدينة باتنة، علاقاته مع موظفي الأمن في محتشد لامبيز جيدة وهو ما يظهر جليا في معاملتهم له.

بالاستفادة الذكية من تلك الامتيازات، تم نقله إلى نفس بناية الحجز معي حتى يتمكن من التحدث بحرية أكبر، على الأقل هذا ما اعتقدت أنها كانت نيته الفعلية لكن هدفه في النهاية كان بالغ الأهمية.

بعد أن تأكد من خلفيتي ومن مكان إقامتي بالجزائر العاصمة وأهم شخصية من معارفي في باتنة، أفصح لي عن خطة قيد الإعداد للسخرية من المخابرات التابعة لدائرة الاستعلام والأمن وتفجير كل جهودهم منذ بداية الصراع المسلح، أخبرني حدسي عن مخطط للفرار من ذلك السجن اللعين.

من بريروس إلى لامبيز

علمت من خلال محادثتنا أن خطة الفرار كانت تهدف في البداية إلى إطلاق سراح المحكوم عليهم بالإعدام وعلى وجه الخصوص أولئك المدانين في ما يسمى بقضية المطار، لكن تطبيق حكم إعدامهم المتسرع بعد أسبوعين فقط من رفض الطعن الجماعي ضد أحكام المحكمة مما فاجأ المجموعة المكلفة بالتخطيط لعملية الفرار وتنفيذها.

لن أذكر أسماء أشخاص هنا، بل سأخاطب أولئك الذين ينسبون عملية الفرار ودون تقديم أدلة لبراءة الجواسيس الذين قاموا بعمل بارع بأمر من قيادة دائرة الاستعلام والأمن، وهي طريقة غبية للإشادة بجهاز قمع قدم الكثير من التضحيات البشرية والمادية لتوقيف ألف ومائتين من الإرهابيين، ثم نزلت عليه فكرة من السماء فجأة لتسقط في رأس «رب الدزاير»: «دعونا نطلق سراحهم ونقتلهم في هروبهم جماعيا لتخلص منهم».

لقد كنا مقتنعين منذ وقت طويل بالفعل، وقد أثبت الوقت لنا وللناس جمعا، ذلك، بأن معبد بن عكنون المروع لا يأوي سوى أعظم الساديين في تاريخنا وأكثر الشخصيات شهرة الذين يتقاتلون من أجل سيادة الشر والذين كره حتى الموت أخذهم معه. «ليأخذهم الله بقبضة قدير جبار».

الفرار من السجن والبطلان المجهولان

حين عدت بذكرياتي الأليمة إلى تلك الفترة الصعبة من حياتي بالتزامن مع الحراك الشعبي.

لم يكن شيئاً سهلاً أن أشير إلى عملية الاستحواذ على المؤسسة العسكرية من طرف الضباط الساميين الذين تداولوا على حكمها إلى يومنا هذا، المعتلون النفسيون بطاغارين يرون الحراك بمثابة تهديد يمكن أن يكون نقطة بداية لامتحان وإعادة تقييم جذية لجميع جرائم النظام، فالتجاوزات الحديثة لجلادي عيلة (عنتر سابقاً) تُبرّر إعادة فتح النقاش أمام الرأي العام حول جميع التجاوزات وخرق حقوق الإنسان التي قامت بها تلك المنظمة الإرهابية المسماة «الدولة».

طوال الفترة التي تم احتجازنا فيها في الوحدة المركزية كان الأخ صالح س. يعطيني فكرة عامة حول الوضع داخل أسوار السجن وصعوبة الحصول على تعاون من خارج السجن كما أوضح لي جميع التدابير التي يجب توخيها من قبل المشاركين في عملية الفرار الكبرى.

كانت نبرة صوته تعبر عن مرارة وحسرة لأنه لم يتقبل ذلك التماطل الذي سمع للطغاة بتطبيق أحكام الإعدام في حق خيرة إخواننا، كما أنه كان يعلم أن الحوار لدى الإسلاميين والجهاديين كما هو الحال دائما ينتهي بالجدال والخلاف فتم تأخير العملية التي كان من المفروض أن تتم قبل 31 أغسطس 1993 بسبب خلاف عقيم وحجج تافهة بين جماعة الشرق وجماعة الوسط.

سألعب دور المترجم لذلك الفشل بالتأكيد على أن مخططتي عملية الفرار تعلموا كيف يضعون خلافاتهم جانبا في مواجهة العدو المشترك، كما فهموا أن قيادة سعيد مخلوفي لا نقاش فيها وأنه من المستحسن أن يكون للعملية أمير من نفس المكان متواجد داخل السجن أثناء القيام بها وهو ما حصل بالفعل.

الأخ صالح س. لم يكن سوى الأخ الأصغر للعقل المدبر وقائد العملية التي أحدثت نزيفا قاتلا في قلب سجن لامبيز وأعطت ضربة لأجهزة مخابرات عبلة، استطعنا أن نبقي مجتمعين معا لمدة شهرين ولا أعلم إن كان ذلك قد حدث صدفة أو بتأثير عوامل أخرى كنت أجهلها.

رغم كل القناعة المتواجدة في حديثه وحججه وثقته الكبيرة بقي شك يراودني في أعماق باطني وظل صوت خافت يهمس لي شيئا مغايرا تماما: «هل بإمكان شباب غير مدرب من الجماعات المسلحة أن يهاجم ويستولي على قلعة مثل لامبيز؟»، كما فكرت أنه من الجنون كذلك أن نستيقظ كل صباح بأمل البقاء وراء هذه الأسوار التي يتعذر عبورها.

في كل ليلة بزنا انتي كنت أقلب تلك الأفكار التي استحوذت على عقلي فلم أستطع أن أقنع نفسي بإمكانية تنفيذ الخطة دون الوصول إلى فكرة نجاح العملية لكن شعلة الأمل كانت متواجدة حيث يسود اليأس والهلع.

الفرار من السجن والبطلان المجهولان

كانت عملية تغيير الزنزانات المتكررة داخل السجن عبارة عن إجراء أمني يهدف لمنع تشكّل جماعات منظّمة، في اليوم الموالي جاء دورنا لتحويلنا إلى زنزانات أخرى في وحدة أقلّ صرامة من حيث ظروف السجن، حيث كانت الزنزانات واسعة ونظيفة بها أسرة مصفوفة الواحد فوق الآخر لأربعة مساجين فأصبح لديّ رفقاء زنزانية، واحد من الجزائر العاصمة واثنان من قسنطينة.

تحسنت ظروف اعتقالنا قليلا فقد كانت لزنزانتنا نافذة تطل على مسلك العربات فكنا نتابع حركة السيارات وتبادل دوريات الحراسة كما كان باستطاعتنا أيضا التحدث مع بعض الحراس بعد غلق الزنزانات حيث كانوا يودّون تبادل النقاش حول هذا التمرد المسلّح بدوافع سياسية.

لم نعد أنا والأخ صالح س. نلتقي منذ التغيير الأخير لكنّه كان دائما ما يعلمني حول تطورات العملية وفي بعض الأحيان كانت الرسائل التي يرسلها عبر شخص آخر مشفرة تماما يصعب فهمها.

لأكون صريحا مع القارئ فأنا أعترف أن التخطيط لمسألة الفرار كان يشوبها التعتيم فكنت كالسائر في ضباب تام وهو شيء مؤسف بالنسبة لي لأنني كنت أود أن أطلع على تفاصيل أكثر.

وكجواب على تساؤلاتي الملّحة حدثت واقعتين متقاربتين خلال أسبوعين سارويهما.

كنا بصدد إقامة صلاة العشاء حين توقف أحد الحراس أمام النافذة لمشاهدتنا فلاحظ أن العاصميين يُقصرّون صلاتهم في حين أن القسنطينيين والباتنيين يكملونها، وبمجرد إتمام الصلاة أشار لي بلباقة لأقرب منه وسألني:

- لماذا يكمل الآخرون الصلاة؟

فأجبت:

- هم من قسنطينة، ويعتقدون أن تقصر الصلاة اختياري فقط.

فهرأسه وقال:

- أنا من باتنة ومن تازولت بالذات وأقصر في صلاتي نظراً للظروف.

بهذه الكلمات التي قالها عن دراية بدأ دمي يجري في عروقي بسرعة،
واندفعت الكثير من الأفكار واستقرت كلمات صالح س. في رأسي، كنت
بحاجة إلى أن أكون وحدي وأتأمل في ما سمعته مراراً وتكراراً.

الحادثة الثانية وقع في نفس الظروف تقريباً، كان الوقت ليلاً ومتأخراً بقليل
عن المعتاد، بقينا نحن الأربعة نتسامر حول حلويات خفيفة نتناقش ونفك
المعلومات التي وصلت إلينا لأنه كان يوم الزيارات.

توقف حارس آخر كان مناوباً في تلك الليلة لعدة دقائق عند نافذتنا لفحصنا
بعناية كما لو كان يبحث عن رجله، ثم اقترب وأشار إلي قائلاً:

- هل أنت من الجزائر العاصمة؟

- نعم.

- من أين بالضبط؟

- لماذا تسألني ذلك؟

- أعلم أنك من القبة.

كنت أصاب بنوبة قلبية عندما قال كلمة القبة.

- نعم أنا من القبة ولكن كيف تعرف ذلك؟

ابنسم ثم قال:

- هل ستتمكن من استخدام كلاشينكوف إذا أحضرتها لك؟

ودون انتظار إجابتي استأنف سيره نحو الوحدات الأخرى التي تحت عهده.

بقيت مذهولاً دون حركة مثل التمثال، ومض جرس إنذار في ذهني بعدها
توقف كل شيء، لأنه كان من المستحيل تجميع أية أفكار.

بعد هذه المحادثة القصيرة بقيت صامتاً ومتأملاً لفترة طويلة، كنت أحاول
معرفة المعنى الدقيق وفحوى الرسالة التي أراد إيصالها إلي فقد كان فك الشيفرة
سهلاً وخطيراً، كانت الكلمات بسيطة لكن وقع معناها كان عميقاً، لذلك قررت
الاتصال بالأخ صالح. س، وطلبت منه أن يجد طريقة للمرور قليلاً إلى زنزانتنا
فوجد ما هو أفضل، فبعد يوم الزيارة الموالي تمكن من إقناع رئيس السجن بمنحه
بضع دقائق في فناء وحدتنا لإعطائي نصيبي من الكسرة بحجة أنني لا أتلقى
زيارات كثيراً.

أقل من خمس دقائق من تبادل الحديث كانت كافية لتهدئة مخاوفي، كان
للأخبار أثر مثل القنبلة: يوجد تواطؤ من داخل السجن وهو تواطؤ مسلح.

هذا التوجيه نحو زنانات جماعية مع تغيير المعتقلين بشكل عشوائي قد سمح
لنا بقضاء ستة أسابيع في ظل نظام سجن مريح وجيد، خلال هذه الفترة التقيت

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

بالسجين فيصل ك..، وهو أحد أقارب مدير المؤسسة فربطتنا علاقة صداقة جيدة فكان كثيراً ما يروي لي أحاديثه مع عمال إدارة السجن.

في أحد الأيام بعد عودته من إحدى زياراته للمدير أخبرني عن ما دار بينهم حول شخصية الشيخ علي بن حاج، الذي كان قد قضى عقوبة بالسجن خلال الثمانينات هنا في لامبيز والذي كان موظفو المؤسسة العقابية يصفونه كسجين نموذجي وقائد لا نقاش عليه.

كما أخبرني أيضاً عن واقعة حدثت مع زعيم بربري كان لعلي بن حاج فيها موقفاً لا يقبل الحياد، فخلال شهر رمضان كان سعيد سعدي لا يصوم ويغيب الحراس كثيراً بعرض تصرفه البغيض حاله حال الذين يستفزون مشاعر الصائمين بمساحات تيزي وزو، بعد عدة إنذارات قرر مدير السجن فرض عقوبة أسبوع في زنزانة تأديبية عليه.

بعد علم الشيخ بلحاج بهذا الإجراء التأديبي الذي اتخذ بحق الرجل، الذي سيصبح حليفاً لدائرة الاستعلام والأمن فيما بعد، هدد الشيخ علي بن حاج والإخوة باللجوء إلى الإضراب إذا لم يتم الإفراج عن الرجل على الفور، فاستدعى مدير السجن الشيخ علي بن حاج إلى مكتبه لمحاولة إقناعه بأن العقوبات اتخذت وفقاً للإجراءات التأديبية وأن الخطأ الذي ارتكبه السجين كان مخالفاً لأحكام الشريعة الإسلامية. لكن الشيخ علي بلحاج دحض بشدة حجج الإدارة معتمداً على عدم وجود نصوص يمكن أن تعاقب المعتقل لرفضه الصوم خلال شهر رمضان وأصر على أنه والسجناء الآخرون متمسكون بتهديدهم بالإضراب، ثم بعد ذلك الإفراج عن سعيد سعدي على الفور ليس بفضل التضامن حول قضية

البربرية المشتركة بل يعود الفضل في المقام الأول إلى الموقف المتشدد للإسلاميين الذين كان لهم وزنهم وكذا عددهم الذي يمكنه إحراج رئيس المؤسسة.

في هذا اليوم 23 يناير 1994 كنا متوجهين إلى الفناء فقوجنا بعملية تفتيش جسدي وهو نوع من الإجراءات التي لا يتم اتخاذها أبداً دون أسباب أمنية.

هذا التفتيش الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة في بيئة السجن لم يحدث عن طريق الصدفة من المؤكد أن تدابير إضافية ستبعه.

بينما كنا نمرّ بالتفتيش الشامل كان حراساً آخرون يفتشون الزنانات وممتلكاتنا الشخصية، كنا أربعين سجيناً وبوتيرة تفتيش بطيئة للغاية استغرق الأمر ساعة على الأقل لإكمال العملية.

كان الانتظار طويلاً ومرهقاً كما كنا نخمن ما تخبئه لنا هذه الحركة، تغيير داخلي أم تحويل إلى مؤسسة أخرى؟ كنا نتمنى بشدة أن لا يحدث نقل أو تغيير للمؤسسة العقابية ليس خشية الذهاب إلى سجن آخر لكن ما كنا نخشاه أكثر من أي شيء هو سوء معاملة رجال الدرك الذين سيرافقوننا أثناء التنقل.

بعد ساعتين من الانتظار، بين خوف وأمل، طلبوا منا أخيراً العودة إلى زنازيننا وحزم حقائبنا لأن إدارة السجن قد قرّرت تغييراً في توزيع المساجين لذلك ستحدث حركات تغيير داخلية حسب لائحة قوانين السجن.

وصل ضابط من وحدة الاحتجاز تلك إلى الموقع بقائمة إعادة التوجيه، من المفترض أن تكون إدارة السجن مثل أجهزة المخابرات لما يسمى بالدولة الجزائرية، قد فحصت بعناية ملف كل نزيل وميوله للعنف، الأمر ليس كذلك! فهذه التقنية

العالية والمعايير الصارمة الخاصة بإدارات السجون ذات الحراسة المشددة غائبة بشكل مؤسف.

تم قراءة القائمة بصوت عالٍ فترك النزلاء الذين يسمعون أسماؤهم الفناء للمشى في طابور تحت حراسة عشرات الحراس إلى مكانهم الجديد، تم اختيار السجناء بشكل عشوائي دون تدقيق بناءً على التهمة ومدة الحكم فقط.

بعد خمس دقائق من المشى دخلنا مكاننا الجديد وهو عبارة عن قاعة كبيرة تحتوي على ستين سريراً فسيحة وجيدة التهوية لكنها متداعية ومهترئة كباقي المرافق والمباني التي ورثتها فرنسا للمستوطنين الجدد.

من المعروف أن التأثير النفسي للسجن، يوماً بعد يوم وعمماً بعد عام، يحدث تغييراً جذرياً في شخصية سجناء قضايا القانون العام، فاعتقدت الطغمة العسكرية لجنرالات انقلاب يناير وحراس عيلة (عنتر سابقاً) انطلاقة من هذا الافتراض أنه يمكنهم تغيير قناعات أولئك الذين تم إجبارهم على الدفاع عن أنفسهم من خلال فرض عقوبات قاسية.

لقد ارتكبوا خطأ فادحاً بإرسال جنوداً تم تجنيدهم من عائلات ومناطق مُدققة الفقر لارتكاب مذابح جماعية في البلدات الصغيرة المتاخمة للمدن الكبرى لهدف غبي يتمثل في تشويه سمعة حفنة من المتمردين المصممين على الدفاع عن أنفسهم بضراوة، خطأ في الحكم على أن الناس سوف يعلمها أفراد الشعب لأطفالهم في المنازل وفي المدرسة وفي جميع التجمعات والجمعيات، ذلك الخطأ الفادح في الحكم من قبل الجنرالين خالد نزار وتوفيق مدين كلف الشعب الجزائري ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف روح راقى إلى بارئها.

قبل نهاية منتصف النهار كنا قد استقرينا في هذه الغرفة الجديدة، أعطينا الأولوية لكبار السن والمعوقين في اختيار السرير والموقع، ثم اتفقنا على قواعد معينة لحياة مشتركة مريحة.

من بين سكان الجزائر البالغ عددهم أربعة وأربعون مليون نسمة لم يعش معظمهم مأساة العشرية السوداء سوى من خلال وسائل الإعلام والدعاية المفبركة على الطريقة الروسية، لا يتواجد سوى مليونان إلى ثلاثة ملايين من يعرفون النسخة الحقيقية للأحداث وهي تلك النسخة التي تحاول المؤسسات التي سيطرت عليها الشرطة السياسية إخفاءها بشكل يائس.

قضينا فترة الظهيرة بأكملها نحاول إعادة بعض البريق إلى هذا المكان الكئيب الذي شهد معاناة آلاف المعتقلين عبر التاريخ.

لقد اخترنا نحن وصالح س.، أماكن بعيدة عن بعضنا البعض فلقد كان يتوجب علينا الاستمرار في تفادي أعين المتطفلين وعدم ترك أي شيء للصدفة.

وامسك نفسك عزيزي القارئ! لأن الأخ صالح س. قد أخبرني وبسرية تامة وكاملة أن عملية الفرار ستتم بعد إطلاق سراحه إذ سيكون الرجل الثاني وراء أروع هروب حدث في التاريخ.

وبالفعل أطلق سراحه في 25 فبراير 1994 وأصابني الذهول أكثر حين تم اختياري، دون أن أستحق ذلك حقاً، لتولي دوره داخل السجن.

كثير من إخواننا المواطنين ليس لديهم أدنى فكرة عما يشعر به المرء في السجن فانت لست في مأمن من الاستفزاز أو التجاوز أو سوء المعاملة.

عرف الحراس في سجن لامبيز، مثل الجميع كذلك، أننا لم نكن سجناء عاديين، البعض اعتبرنا سجناء سياسيين، والبعض الآخر كما حدث أثناء النضال من أجل الاستقلال اختاروا أن ينجزوا مهمة الحركيين وأن يطبقوا القيود الجسدية والمعنوية التي أوصى بها القضاء المقنعة للمحاكم الخاصة.

عندما تستيقظ في الصباح بين جدران السجن فانت لا تعرف أبداً ما إذا كان يوماً جيداً أم يوماً سيئاً، عمليات البحث والتفتيش الجسدية المنهجية وتفتيش قاعات الإقامة التي تبررها لوائح الإجراءات الأمنية على الرغم من أنها تخلق شعوراً بالتعسف وسوء المعاملة والتطفل.

لم يكن صباح 23 فبراير 1994 صباحاً جيداً، وقف حشد من الحراس عند بوابة المجمع الذي كنا محتجزين فيه، كان من المقرر إجراء تفتيش صارم قبل «إفطار الصباح»، أخبرنا الضابط المسؤول عن العملية أن التفتيش سيجري لذلك على الجميع الوقوف أسفل سريره، تم التفتيش الجسدي دون وقوع أي حوادث وغادرنا الغرفة للسماح بتفتيش أمتعتنا الشخصية وموادنا الغذائية.

استغرق البحث داخل الغرفة وقتاً طويلاً بشكل غير عادي، لاحظ الضابط الذي كان لا يزال واقفاً عند المدخل أن صبرنا قد نفذ فأمر الحراس بمغادرة الغرفة صارخاً: «انتهى وقت البحث، الجميع إلى الخارج» تماماً مثل عملاء بن عكنون،

ضباط سجن لامبيز يشبهون كثيراً الشيطان لذلك كان من الواضح أنهم سيتركون وراءهم صنيعاً استفزازياً لمجرد عدم وجود هدف معين.

من الطبيعي أن تتم عمليات تفتيش من هذا النوع وهذا موجود في جميع المؤسسات العقابية لأن الهدف منها هو ضبط وحجز أي أداة أو مادة ممنوعة

مع احترام قدر الإمكان كرامة السجنين، لكن هذا الإجراء البسيط الذي يُمارس بشكل سطحي على السجناء تحوّل، بفضل بعض حراس السجن المعتادين على المتنوع والهوان، إلى حوادث تحرش وإهانات.

كانت شكوكي في محلها فبمجرد دخول السجن الأول إلى الغرفة لاحظت الفوضى العارمة التي تركها المفتشون عمداً وعلى مرأى من الضابط المسؤول لأنه واحد مارق مثل الآخرين.

الأمر المثير للإعجاب لدى هؤلاء المتمردين الذين وصفوهم ووصموهم بأنهم إرهابيون هو رد فعلهم الفوري المنضبط والمحسوب له لأن الحادثة تتطلب قراراً جماعياً.

لم يكن يسعنا أمام تلك الفوضى المفتعلة عن قصد سوى المشاهدة فلقد تم إلقاء المراتب والأفرشة على الأرض، وتراكمت بطانياتنا معاً في زاوية وأسرتنا ذات الطوابق مصطفة على طول الجدران.

إن جهل هؤلاء الرجال وانحطاطهم وغدم سعيهم إلى استخدام حواسهم الخمس قد أثر على رحلة حياتي الشخصية، علاوة على ذلك، فإن هذه الخثالة ليست مهنية تماماً فلقد سمحوا لأنفسهم بحرماننا من الضروريات من المواد الغذائية، خلطوا السكر بالملح والحليب المجفف والزيت بالخل، حتى الماء الذي يوفره السجن تم سكه في الأحواض، إنه فعل غير إنساني تماماً.

لم يكن بإمكاننا البقاء صامتين أمام حجم الضرر، كان من الضروري التعبير عن سخطنا برفض العودة إلى القاعة وهي بهذه الحال واشتراط حضور أحد أعضاء الإدارة للوقوف على الضرر الذي سببه موظفوها.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

وبما أننا نتكلم عن السجون فلتحدث قليلاً عن الطعام الذي يتم تقديمه في سجون ما يسمى بالدولة الجزائرية، يعتقد الكثير من الناس أن ما يتم تقديمه في سجوننا يمكن تشبيهه بالوجبات لكن ذلك غير صحيح، صدقوني ! حتى في سجون الدول الأوروبية، حيث الفساد ضعيف جداً، فالطعام ليس له سمة الوجبات بل طعام بسيط بدون نكهة وهو نفسه سواء للشباب أو المسنّ العجوز.

في الجزائر ومع عمليات الاختلاس والسرقة التي تتم مع الإفلات التام من العقاب تم تخفيض حصص الطعام بنسبة 70٪ تقريباً.

فوضت الإدارة ضابطاً للاستماع ونقل احتجاجاتنا حتى لا يتكرر هذا النوع من الاستفزاز مرة أخرى، بعد خطاب قصير فيه دعوى للتهدة إلى حد ما، دعانا إلى العودة نحو القاعة وإعادة الأمور إلى نصابها مرة أخرى وهو ما فعلناه على الفور، كانت الساعة الثالثة ظهراً حين أقمنا إرجاع المقتنيات الشخصية إلى أماكنها كما كانت قبل التفتيش قبل حلول موعد غلق الزنزانات.

عادت الحياة نوعاً ما إلى مسارها الطبيعي وعادت العلاقات بين المعتقلين وموظفي السجون إلى طبيعتها بل وهدأت حتى تاريخ 27 فبراير 1994.

بمجرد فتح وحدة الإقامة لدينا وبعد المناذاة على الأسماء والحصول على الإفطار، طلب منا أحد الضباط وفي يده قائمة أن نصطف مثني مثني في منتصف الفناء، كان عليه أن ينادي حوالي 30 اسماً لمعتقلين يتوجب عليهم تحضير أمتعتهم على الفور، تم اتخاذ إجراء تحويل مساجين انتقاماً لخرق قوانين إدارة المؤسسة، هذا الهراء لا يفهمه أحد سواهم لأنهم هم من اختلقوه.

ولجعل الأمور أسوأ كنت ضمن قائمة التحويل إلى سجن في غرب الجزائر، لقد شعرت بالضيق الشديد، حزنت على نفسي بالتأكيد لكن أكثر ما كان يُحزنني هو نجاح خطة الفرار، فقد كلفني الأخ صالح. س قبل الإفراج عنه في 25 فبراير أي قبل يومين، بمهمة جديدة داخل السجن.

بعد ما تم نشر أسماء المغادرين عدنا إلى القاعة من أجل جمع أغراضنا والحراس بحثونا على الاستعجال فاخترت أسرع طريقة للقيام بذلك حسب تقنيات السجن وهي نشر بطانيتي على الأرض، مثل كل الآخرين، ووضع كل الأشياء التي تخصني في المنتصف، وبنهاياتها الأربعة قمت بربطها على شكل حزمة ورميتها مباشرة على كتفي، تلك الحركة ذكرتني بالجزائر القديمة لأجدادي.

إن معارضة الظلم أو حتى مجرد الاحتجاج عليه له ثمن في المقابل، وها نحن نسير إلى وجهة لا تزال مجهولة، شققنا طريقنا إلى مركز عبور بالقرب من البوابة الرئيسية تحت إشراف الضباط والحراس، خطوات قليلة من الحرية، أود أن أكمل هنا مقولة أنطوان دو سانت إكزوبيري: «إذا كانت الحياة البشرية لا تقدر بثمن، فإننا نتصرف دائماً كما لو أن شيئاً ما يتجاوز في القيمة الحياة البشرية...» ولكن ماذا؟ الجواب هو الحرية عزيزي أنطوان فعليك أن تخسرها لتعرف قيمتها.

بعد المشي لوقت قصير استقرينا في بيت خشبي صغير قليل الترتيب يكفي لفترة قصيرة.

كان اليوم هو 27 فبراير 1994، قضينا أربعة أيام في مركز العبور، كنا نستعد لإنهاء الأسبوع في نفس المكان لأن اليوم التالي كان الخميس وهو يوم

راحة أسبوعية، وإذا بحافلة مصلحة السجون تتوقف عند مدخل الغرفة حوالي الساعة 4 صباحًا.

بعد ساعتين غادرنا سجن لامبيز تحت حراسة من الدرك الذين كانوا يتناقلون المهمة من فرقة لأخرى، لقد كانوا دركيين فخوريين بهذه البطولة لكنها لم تكن كذلك، أولئك الدركيون وضباط الشرطة والجنود الذين من المفروض أن يكون واجبهم خدمة الوطن مساندون لجنرالات السلطة ويدعمونهم بأجسادهم وأرواحهم، إن بطولة «منقذي الجمهورية» تُداس اليوم في كل الشوارع الجزائرية وفي كل العواصم الأوروبية، لقد بلغتكم أنتم وسادتكم قمة الذل والمهانة، الشعب يصدق ويردد بصوت عالٍ شعارات: «الماфия العسكرية»، «المخابرات الإرهابية»، «الجنرالات إلى القمامة».... لقد دفنت بطولاتك الزائفة وستدفن معها كذلك لأنه مصيرك على مر التاريخ ولطالما كان الأمر كذلك دائمًا.

اصطحبنا موظفو السجن المرافقون لنا إلى الحافلة التي كانت من الداخل ومقاعدنا مصنوعة من المعدن، قاموا بتقييد أيدينا إلى المقاعد بدون وحشية أو عنف لتنتقل الحافلة نحو وجهة جديدة ومجهولة، إذا كان ما علمته من عميد السجناء صحيحًا، وهو سجين من العاصمة محكوم عليه بالسجن المؤبد، فإن وجهتنا ستكون الشلف لأنه في اليوم السابق تمت عملية نقل إلى البرواقية في نفس التوقيت.

لأول مرة كنت أرغب في البقاء في لامبيز، هو سجن قذر وكثير يتعرض فيه البشر لظروف مروعة ولكنه يوفر فرصة لرؤية الهواء الطلق والشعور بالتحكم

الفرار من السجن والبطلان المجهولان

في الذات ومصيرها، لطالما آمنت وما زلت أو من أن أعيش هذه الحياة القصيرة بشرف أفضل من عيش حياة طويلة جدًا كالحيوان - أكرمكم الله -.

إن كانت وجهتنا هي سجن الشلف وهو سجن سيء السمعة فالمسافة لن تقل عن 600 كيلومتر، إذا ما حسبنا السرعة المفروضة على السائق بالإضافة إلى وقت تغيير الحراسة المرافقة فإننا لن نصل إلى الهدف إلا بعد حلول الظلام وهو ما يعادل من اثني عشر إلى أربع عشرة ساعة من العذاب الإضافي.

الشلف، سجن تحت الصفر

بعد يوم طويل من السفر وصلنا حوالي الساعة السابعة مساءً إلى سجن الشلف وقد جفت الدماء في عروقنا وأضعفنا الإرهاق من الرحلة تمامًا، الترحيب كان احترافياً للغاية بل ودوداً بعض الشيء، فأنا شخصياً اندهشت من ذلك السلوك فعلى ما بدا، كان الحراس غير مهتمين بوصولنا.

بدون الإكثار من الإجراءات الإدارية أو البروتوكولات وبسرعة كبيرة تم توزيعنا إلى مجموعات من خمسة أفراد على ست زنانات لتلك الليلة كما أخبرونا، كان اليوم 28 رمضان الموافق لـ 3 مارس 1994.

في ذلك المساء، بينما كنا نتذوق الشورية التي قدمها لنا إخواننا السجناء، لم نتوقف لحظة الفرار التي تركناها وراءنا عن شغل بالي فمن المؤسف أن فكرة إذلال الدولة غير الشرعية لم تكن مكتوبة في قدرنا.

في وقت مبكر من اليوم التالي، قبل وصول فريق حراس النهار، انتشرت شائعة عن عملية فرار مذهلة من سجن لامبيز، أكثر من ألف شاب جزائري ينتمون إلى

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

تلك الفئة الاجتماعية والأيديولوجية التي قرر الجيش إبادتها، استعادوا حريتهم لأنه لم يكن لديهم بديل آخر سوى السير على خطى آبائهم.

أراد العديد من المفكرين والمتعلمين أن ينسبوا هذا الهروب إلى عبقرية دائرة الاستعلام والأمن حيث حاول صحفيو النظام عبثًا نشر دعاية رسمية على أنه كان إجراء استراتيجي لحفظ ماء الوجه في مواجهة الرأي العام الوطني والدولي.

لعبت هذه الصحافة التي أعيدت هيكلتها تحت إشراف الجيش منذ وصول من يُطلق عليهم «جيش الحدود» إلى السلطة دورًا رئيسيًا في تقييد المجتمع الجزائري، سوف يعلم التاريخ وستطرق الكتب المدرسية إلى جميع الجرائم التي لا تخضع للتقادم في الجزائر الجديدة، سيتم الكشف عن الأسماء والوظائف والمسؤوليات يوما ما للشعب.

كنت أشعر بالغضب في أعماقي لأنني فوتّ عملية القرن بيضع ساعات، لكن حين فكرت في الأمر فإن التحدي كان هبة كبيرة من السماء وفي جميع الأحوال أنا سعيد لأي شخص أراد أن يأخذ مصيره بيده سواء كانوا في الجبال أو خارج الوطن لأن ذلك غير مهم ما دامت طينة الرجال من نفس المادة التي صُنعت منها العم سعيد. ت صديق طفولتي.

عنوان هذا الفصل «الشلف، سجن تحت الصفر»، ربما تتساءلون عن سبب اختيار عنوان مماثل وهل هو مجرد أسطورة أم حقيقة؟

سجن الشلف هو مؤسسة عقابية تابعة لإدارة السجون طاقتها الاستيعابية صغيرة نسبيًا، لفترة طويلة لم تكن قادرة على استيعاب المحتجزين في قضايا

القانون العام في ظروف مقبولة ناهيك عن التدفق المستمر للوافدين الجدد الذين
نحكم عليهم المحاكم الخاصة.

بمجموعتنا التي جاءت من لامبيز تكيقت بسرعة مع روتين المؤسسة بفضل
الترحيب الحار والدعم الصادق لإخواننا من الغرب، إذ سيكون من الظلم عدم
تسليط الضوء على صدق الأخوة والضيافة التي لا مثيل لها في هذه المنطقة.

مرت الأشهر الأولى في ظل أفضل الظروف الممكنة لمعتقلي المحاكم الخاصة،
حيث كانت الحرية شبه كاملة داخل الجدران متوجة بغياب تام وغير معقول
للقبود أو سوء المعاملة.

وضع مثالي حيث كانت ممارسة الرياضة مسموحة فكان يتم تنظيم مباريات
لكرة القدم، وحتى أوقات الاستراحة في الفناء كانت طويلة جداً، كانت العلاقة
مع الحارس المسؤول تسير على ما يرام وهو رجل اسمه يوسف كان يتمتع بروح
طيبة متعاونة.

لكن دوام الحال من المحال وحين يكون كل شيء على ما يرام فلا بد من تغير
الأحوال.

الحياة في ملاحق السجن:

كان متوقعا أنه في ظل ظروف النزاع المسلح لا يمكن أن تستمر فترة الاسترخاء
هذه طويلاً، عاجلاً أم آجلاً كان وقوع حادث على الجبهة السياسية العسكرية من
شأنه أن يغير الوضع جذرياً.

لمدة ستة أشهر لم نعش أي تجاوز في هذا السجن الذي كانت له سمعة سيئة للغاية في عالم السجون.

في شهر تشرين الأول 1994، حدث أمر مؤسف للغاية وهو اغتيال الحارس المسؤول يوسف فتم وضع جسده ورأسه مقطوعاً عند المدخل الرئيسي للموظفين، هذا الفعل المشين المشابه للاستفزاز أدى إلى تحول تام في ظروف الاحتجاز.

بدأت حركة كبيرة بمجرد انتهاء النداء على الأسماء بين مركز التوقيف والملحق وهما أماكن إقامة السجناء الذين يحاكمهم رجال يرتدون أقنعة، بعد انتهاء عمليات إعادة التوزيع وإغلاق الزنزانات، شرعت الإدارة في وضع جدول زمني لتدابير التقييد الجسدي والقيود المادية.

في غضون ذلك أطلق الحراس، وهم تلك البذرة السيئة التي تنمو في كل مكان، العنان لغريزة الانتقام فتعرض ما يقارب الأربعمئة معتقل للضرب والإهانة والبصق، حتى أن البعض تم تجريدهم من ملابسهم وانهاؤوا عليهم بالركلات، أما صغار السن ما بين التاسعة عشرة والثانية والعشرين فكانوا يتعرضون لاعتداءات جنسية.

المادة الأولى في اللوائح الجديدة من الإجراءات الانتقامية المتشددة هي منع القرآن في جميع مرافق السجون فأصبحت أي قراءة أو كتابة إسلامية تنجر عنها عقوبة في سجن الشلف، تم سحب جميع مصاحفنا وكراريس الكتابة، أي سورة أو أي آية قرآنية منسوخة على الورق يعاقب عليها باثني عشر جلدة على باطن القدمين كما أن جميع الرموز التي تشير إلى الإسلام يعاقب عليها القانون.

الشلف، سجن تحت الصفر

إضافة إلى الحظر المفروض على الكتاب القرآني نجد مجموعة من القيود الأخرى، مثل تقليل وقت التزهة في الفناء إلى أبسط أشكاله أي ساعة واحدة في اليوم صباحاً في الأسبوع الأول ومساءً في الأسبوع الثاني، يجري تغيير زنرانات النزلاء بين المواقع كل أسبوع، التمارين الرياضية محظورة، زاد عدد عمليات تفتيش الغرف والتفتيش الجسدي والأدهى من ذلك هو أن يتبعها عقاب جماعي وكذا سوء المعاملة وإذلال النزلاء الذين يتم اختيارهم عشوائياً.

لقد أصبحت الاستفزازات نصيبنا اليومي حيث لا يمر يوم ولا نسمع فيه أن أحداً منا قد تعرض لاعتداء وحشي من قبل حشرات السجن.

أحد المواقع المستخدمة في حبس المعتقلين الذين حوكموا في محاكم خاصة تُعرف باسم الملاحق (Bis) لم يكن في الأصل مخصصاً لهذا الغرض بل كان مستودعات مخصصة لأنشطة خاصة بالطيران وتم تحويلها في هذه الظروف الخاصة إلى محتشدات مؤقتة، يحتوي المستودع على ثماني غرف تتسع لأكثر من أربعين شخصاً من هذه الفئة من الجزائريين الذين أراد العسكر إبادتهم.

على عكس المؤسسات العقابية الأخرى حيث تستوفي الغرف الجماعية معايير دولية معينة منذ بداية القرن الماضي، فإن الملاحق ليست سوى نتاج ترتيب مؤقت يهدف إلى استيعاب الاكتظاظ الكبير.

ترتفع الجدران بثمانية أمتار تعلوها ثلاثة أمتار من القضبان المعدنية وزجاج بلاستيكي شفاف قاسٍ وصلب مما يسمح بدخول ضوء النهار وإضاءة غرف الاعتقال، علاوة على ذلك يتم استخدام ألواح الحديد المموج المثبتة على إطار معدني ثقيل على شكل سقف للغرف.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

الكثير من هذه المستودعات لم تصمد أمام مرور الزمن، لم تعرف هذه المباني أية صيانة أو ترميم أبداً، وعند وصولنا كانت في حالة متقدمة من الإهمال، عدد كبير من قطع السقف والحديد قد تعطم أو تطاير مع الرياح تاركاً بذلك الظروف المناخية لولاية الشلف تنسلل إلى حياة السجناء الصعبة للغاية أصلاً أي المطر والرياح وبرد الشتاء الذي غالباً ما تكون درجاته تحت الصفر وحرارة الصيف الحارقة التي تصل إلى 42 درجة، كل هذا يجعل المؤسسة ترقى إلى مستوى سمعتها الشريرة بأنها «سجن تحت الصفر».

تحتوي الغرف على مرحاضين وصنوبرين للمياه غير صالحة للشرب، في معظم الأوقات هناك أكثر من أربعين شخصاً نتقاسم مساحة بها 24 بلاطة فقط أو أقل من متر مربع واحد لكل نزيل مع بطانيتين لاستعمالها في النوم.

في أذهان الجزائريين يمكن أن يكون الطعام المعد في مطابخ السجناء مشابهاً للأطباق المقدمة إلى المجندين في الخدمة الوطنية، بعد تجربتي لكلتا الحالتين أستطيع أن أؤكد لكم أن طعام الثكنات، على الرغم من كونه مشيراً للاشمئزاز، يُعدّ صالحاً للأكل من قبل البشر.

دون التطرق لنوعية الطعام المثيرة للاشمئزاز، تم تخفيض حصصنا في الطعام إلى الحد الأدنى بعد حادثة وفاة الحارس المسؤول، يحصل كل فرد على نصف كوب من القهوة وقطعة صغيرة من الخبز على الإفطار، في الغداء قد نجد على سبيل المثال اثنتي عشرة حبة لوبيا أو ثلاثين من العدس وكوباً من حسائها ورغيفاً من الخبز، في العشاء يُقدّمون لنا أي شيء يتم طهيهِ وبنفس الكمية.

لم يكن موظفو السجن المعروفين بانعدام الأخلاق والوارع الإنساني مختلفين في الواقع عن زبانية مركز عيلة (عتر سابقاً) في سجن العف والسادية، فقد تم نسيب جميع أشكال العقاب والتعذيب بشكل جماعي أو فردي يومياً، من ذلك الكابوس الذي عشته خلال عدة سنوات سأروي لكم بعضاً مما مررنا به لعرض جزء صغير من مسلسل الإذلال والإهانة، أين كان أبسط دليل أو فعل يرتبط بالإسلام يؤذي إلى عقاب فوري.

في أحد الأيام وبعد المناذاة على أسماننا ككل صباح، لمح أحد الحراس أثناء الفحص الروتيني لغرفتنا قطعة قماش كقبة كان يستخدمها سجين شاب يبلغ من العمر عشرين عاماً لتغطية رأسه من البرد الذي كان ينسكب من السقف المهترئ فشبها بالعراقية (غطاء إسلامي للرأس) فسحبت إلى المكان الذي يتم فيه تنفيذ العقوبات وتلقيت عشرات الجلدات بخيط كابل الهوائي على باطن قدمي.

في ذلك اليوم كنا ستة سجناء تلقوا في الصباح الباكر جرعة من التعذيب، كان الحراس معظمهم من الريف، يتكرون أصنافاً من العقوبات لتطبيقها على المعتقلين الذين أضعفتهم أصلاً الظروف اللا إنسانية التي يعيشونها، لا بد أن معنويات المساجين كانت قوية بما أنه لم تخرج من هؤلاء الرجال العاديين حتى ذلك الحين غرائز مخيفة.

لم يظن أحد أن سجن الشلف، بالنظر إلى الطابع الودود والمضياف والدافئ لأبناء المنطقة، يمكن أن يكون أسوأ سجن في البلاد، سجن له سجل أسود من الانتهاكات المنهجية على يد حراس نشروا الرعب والابتزاز بين نزلاء السجن الخاضعين لسلطتهم.

يمكنني الاعتراف بأن أكثر اللحظات إثارة للاشمئزاز في حياتي عشتها في سجن الشلف وسأخبركم عن سبب ذلك.

في اليوم الذي قُتل فيه أمير الجماعة الإسلامية المسلحة الراحل شريف قوسمي المعروف باسم أبو عبد الله أحمد، في كمين وقع في 26 تشرين الأول 1994 إذا كنت أتذكر بشكل صحيح، تم القيام بتفتيش عام في الزنازين والغرف بشكل مفاجئ.

فوجدنا بصفارات الحراس الصارخة تُبلغنا بمغادرة المكان على الفور فلم تعد لدينا إمكانية إخفاء أي شيء، وتركنا القاعات على عجلة من أمرنا متبعين توجيهات الحراس لنجد أنفسنا في ممر واسع وطويل.

كانت دهشتنا كبيرة حين اكتشفنا أن جميع موظفي السجن متورطون في عملية الإذلال الجماعية، صرخ رئيس المعتقل وهو رجل يُدعى «زنغا» ومساعد «العهد» بفضاضة شديدة ليأمرنا بتجريد أنفسنا من الملابس لنبقى عراة تمامًا وأن نواجه الحائط مع رفع الأيدي ووضعها عاليًا.

مشهد حقير! لا يلجأ إليه سوى البائسون، تخيل معي ما يقارب مائتي بُنية شديدة وقوية مكشوفة مثل حيوانات المذبح.

كان الجو بارد نسبيًا في ولاية الشلف في ذلك الوقت من العام فبقينا نرتجف في تلك الوضعية لمدة أربعين دقيقة على الأقل والحراس يجولون ذهابًا وإيابًا متصنعين للإثارة الجنسية فيلمسوننا بأيديهم ويتحرشون بمداعية أرداف الأصغر سنًا من بيننا.

في أحد الأيام، قام أحد الشباب بالتدأ إلى صلاة المغرب بأداء الأذان بصوت مؤثر جدًا وكان أحد الحراس يراقبه من أعلى مركز المراقبة الخاص به، كنا قد لاحظنا وجوده لكن ذلك كان أمرا عاديا فلطالما كان الحراس يتوقفون للاستماع إلى الأذان ومشاهدتنا تؤدي صلاة الجماعة.

لكن في اليوم الموالي بعد المناذاة على الأسماء، تم استدعاء ثلاثة من إخواننا الأشداء المعروفين في السجن بأنهم رجال أقوياء ومعهم الشاب الذي أدى الأذان بدون أي ذريعة أو سبب معقول، تلقى الإخوان الثلاث عقابا باستخدام كابل مضفر مما ترك علامات عميقة على أجسادهم ووجوههم، بينما لم يعاني الشاب من أي وحشية بل عاد بدموع كبيرة في عينيه وغضب لا يوصف من العجز، قام أولئك السجنانون بتجريده من ملابسه كليًا ووضعوا يديه على الحائط، وقاموا بلمسه بالأصابع واليدين وحتى بمعداتهم وهم يضربونه بعنف على أردافه طوال عشرين دقيقة في حضور العديد من زملائهم الذين جاؤوا للاستمتاع.

في فصل الشتاء وفي هذا السجن المكشوف على الهواء الطلق يكون البرد قارسًا وقاسيًا دون وسيلة للتدفئة، حتى البطانيات وملابسنا لم تستطع مجابهته، مع ندرة الغذاء وخفض الحصص الغذائية كنا نتدبر حالنا بوسائلنا الخاصة، فنحن الذين نأتي من بعيد نحصل على المؤن من متجر السجن أما إخواننا من الغرب فكانوا يتحصلون على القفف بانتظام من مواعيد الزيارة فكان تبادل المساعدة فيما بيننا تساعدنا على مقاومة الظروف بشكل أفضل.

عندما يحل فصل الصيف نصبح عاجزين أمام الحرارة التي كانت تتجاوز داخل الغرف في كثير من الأحيان 45 درجة تحت ذلك السقف المعدني.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

كان النزيل فضيل ب.، يعاني من أمراض باطنية مزمنة وتعرض لصعوبة هائلة في التنفس بسبب حرارة الجو، لم يكن يستطيع الوقوف ساكناً لأنه يحترق بالاختناق فيها السخّانين الذين لم يابهوا لأمره تماماً.

في حوالي الساعة 9:00 من صباح ذلك اليوم استلقى أخونا فضيل ب.، على فراشه ونطق الشهادتين ليغادر بهدوء السجن والحياة إلى الأبد.

حتى لا ننسى همجية ووحشية رجال هذا النظام ومؤسساته، تم نقل شقيقنا فضيل ب.، إلى المستوصف وكأنهم يقومون بنقل أكياس القمامة، أتى نزيل بعمل ممرضاً إلى غرفتنا برفقة اثنين من الحراس وقام بسحب الجثة من الذراعين ووضعها على شكل حزمة فوق كتفه وحملها نحو المستوصف دون مبالاة ولا إنسانية.

الحياة في مركز الاعتقال:

الحياة هنا ليست مختلفة بل هي نوع من التكرار المرير، الفرق الوحيد هو أن هذا الموقع يحتوي على زنانات ضيقة مساحتها مترين على ثلاثة أمتار مجهزة بركن لقضاء الحاجة، والتي من المفترض أن تستقبل نزيلين فقط وفقاً للمعايير المتفق عليها دون مراتب وأسرة.

وبغض النظر عن أساسيات الإقامة في الزنانة، فقد تم حشرنا في مجموعات من أربعة وأحياناً خمسة داخل الزنانة الواحدة مع ساعة واحدة فقط للاستراحة في اليوم وسوء معاملة لثلاث وعشرين ساعة.

ومثلما هي معاناة نزلاء الملاحق مع سياسة التعنيف والعقاب الجسدي، عانى أولئك الموجودون في مركز الاعتقال من نفس الكابوس، إن لم يكن أكثر، فكانوا عرضة للانتقام دموي ضدهم قد تم التخطيط له وتنفيذه في غياهب عتمة الزنازين.

أريد أن أستذكر هنا واحدا آخر من إخواننا وهو محمد بوراس من غليزان،
حفيد عائلة ثورية عريقة وسليل المجاهد الوطني محمد بوراس أحد رواد الكشافة
الإسلامية الجزائرية.

في البداية التقيت به في الملاحق وكان في حالة جيدة تجسدت في قوة جسدية
وعقلية عالية وهي ما يلزم للخروج من هذه المحنة الصعبة للغاية بصحة وسلام،
حكم عليه بالسجن اثني عشر عامًا وهو طريق طويل جدًا لقطعه في هذه الظروف.

كنا نرى بعضنا البعض كل يوم طيلة ستة أشهر، تعاطف معي كوني عاصمًا
تائها وسط إخوته من الغرب، وما ربطه بي هو شعوره بالحنين لأنه قضى جزءًا من
طفولته في الجزائر العاصمة.

تسبب نقلي إلى مركز الاعتقال في الاجتماع به للمرة الثانية، كان لا يزال
بصحة جيدة في الظاهر لكنه كان يشكو كثيرا من ألم في ساقه اليمنى.

لا يوجد في نظام السجون الجزائرية في رأيي، قوانين تضمن نفس نوعية
الرعاية الصحية بين المحتجزين وبقية السكان، لا أعرف ما إذا كان هناك أي
قانون من هذا القبيل، لكن في الواقع ومع هؤلاء البلطجية الذين يحكموننا فإن
قضاء العقوبة هو أن يكون المرء سجينًا في المرتبة الأولى ولا يمكنه أن يكون مريضًا،
لذلك كان من الضروري أن يموت محمد بوراس للمطالبة بالنظر إلى إمكانية أن
يكون السجين مريضًا ومحتاجًا إلى رعاية.

مرت الأيام واشتد الألم عليه أكثر فأكثر، كان موضع الألم في أعلى عظم ساقه
ولم يعد من الممكن تحمله، لم يعد الرجل قادرًا على النوم ولم تعد الأدوية الموصوفة
له تُعطي أي تأثير عليه، قرر أخيرًا طبيب السجن كإنسان، إرساله إلى المستشفى.

لم أره منذ ذلك الحين، لكنني علمت من زملائي أنه احتُجز في مستشفى الشلف وبُترت ساقه.

هذا الإهمال الطبي هو ممارسة شائعة في السجون، خاصة خلال فترة الاكتظاظ التي عايشناها.

وبما أن المصاب لا تأتي بمفردها ومع ظروف الاحتجاز المروعة، تدهورت صحة أخينا محمد بوراس يوما بعد يوم وتم تشخيص حالته بأنه مصاب بتورمات خطيرة لا حلول لها ولا علاج لها.

بعد فترة وجيزة من لقائي به، وفي آخر مرة خرج لقاعة استقبال الزيارات، كان لا يبقى منه سوى حطام بشري يتحرك بعكازة يدوية الصنع، أصبحت أيامه معدودة ولم يمر وقت طويل حتى وصلنا خبر وفاته بواسطة الحراس المنحدرين من منطقته في غليزان.

هؤلاء الحراس أنفسهم الذين ينحدر بعضهم من الرمكة، هم الذين أخبروا المعتقلين المقربين منهم بملايسات المجزرة ومرتكبيها وعدد الضحايا والتي فاق بكثير الأرقام التي أعلنها النظام العسكري، يتذكر أهل الرمكة الجناة والمسؤولين، ولا شك لدي في أنهم سيحرمون القسم بالإدلاء بشهاداتهم وكشف المذنبين بمجرد استيفاء الظروف المناسبة.

للعودة في هذا السياق إلى حياة السجن في زنزانات مركز الاعتقال، حيث يسود الاكتظاظ وانعدام النظافة والهواء العفن وتُدرة الطعام، يعاني العديد من النزلاء بسبب درجات الحرارة المنخفضة جدًا في الشتاء والمرتفعة جدًا في

الصيف.. ومن هنا تأتي حقيقة أن سجن الشلف يأخذ سمعته السيئة من الذين سبقونا إليه والمتمثلة في ظروف الاعتقال دون الصفر.

يتواصل العبء اليومي للقيود الجسدية بمتغيرات جديدة وتجاوزات دائمة بإمضاء روينجاس العسكر تدوس على كرامة وإنسانية المحتجز، على سبيل المثال جُرد خمسة معتقلين من متعلقاتهم الشخصية حتى ملابسهم الداخلية كعقوبة لهم ووُضعوا معاً في زنزانة واحدة لمدة أسبوع، لم يكن لدى المساكين سوى أيديهم لتغطية عوراتهم أمام بعضهم البعض، هل يمكنك أن تتخيل كيف يمكن لهؤلاء الرجال القيام بصلواتهم وواجباتهم الدينية؟

في كل صباح وفي كلا موقعي الاعتقال يتم جلد المعتقلين لحيازتهم آيات قرآنية مكتوبة على قطعة من الورق، هذا لم يمنعنا من الكتابة وإعادة الكتابة من ذاكرتنا لكل من لم يحفظ القرآن كاملاً.

في بداية فترة الاعتقال لم يحفظ القرآن بالكامل سوى عشرة معتقلين، بعد عامين من مصادرة القرآن وحرماننا منه ارتفع العدد بحمد الله إلى أكثر من مائة شخص.

ومن المفارقات الكثيرة تلك الزيارات التي كانت تقوم بها والدته مديرة المؤسسة الفاسد حتى النخاع، في كل يوم عيد فكانت تحثه على معاملتنا بشكل جيد، لأنها لم تكن لديها أي فكرة عن مدى وحشية الحيوان الذي ولدته وربته.

ومع ذلك، فقد عشت ما يقارب الأربع سنوات في هذا الجحيم تحت الصفر، باستثناء حالات الغياب المتقطعة والقسرية التي أفضل عدم التطرق إليها في هذه

المذكرات، لقد نجوت في خفاء تام، نجوت كوني أكثر المطلوبين في السجن، خلال فترة إقامتي بأكملها بشكل فردي لم أتعرض لمعاملة وحشية أو اعتداء إلا بضع مرات يمكن حسابها على أصابع يد واحدة، على الرغم من أنه ومنذ الأيام الأولى، كان من الضروري تحديد كل العاصمين، وخاصة محور القبة -باب الواد-، فقد كان السؤال: «من أين أنت؟» يُتداول طوال الوقت وفي أي زمان ومكان.

كشفت بعض شباب الكاليتوس والحراش عن أنفسهم بسذاجة شديدة فدفعوا ثمن ذلك، رغم أن خلفيتهم لم تكن مطلوبة، واحد منهم وهو مراد م. معروف عنه أنه شاب متهور، كان يتعرض للضرب المبرح مع كل حركة يقوم بها وفي كل تفتيش.

من ناحيتي وبما أنني كنت أعرف التذاعيات المحتملة، اخترت عدم الكشف عن هويتي وعدم إظهار أي اهتمام فكنت أرد في كل مرة وبنفس رباطة الجأش أنني أتيت من تيزي وزو، كان هذا الرد يذهل الحراس الذين كانوا يتساءلون كيف يمكن أن يكون أحد القبائليين من بين الإرهابيين فكنت أقدم لهم دائما تفسيراً معقولاً ومقنعاً وبالتالي أصبح ذلك «جواز سفري الأمني»، كان جميع السجناء يعرفونني لكن لم يقم أي أحد بالوشاية بي، وكثيرا ما كنت أسمع أحاديث حول ما تناقلته وسائل الإعلام الدعائية للجنرالالات «منقذي الجمهورية» حول تفجيرات العاصمة كما كانوا يشيرون إلى اسمي في مناقشاتهم وفي القضية التي أدنت فيها.

الشلف، سجن تحت الصفر

كانوا يختارون من مساجين قضايا القانون العام أقدرهم وأكثرهم فسادًا ممن يعتبرونهم بلا أخلاق أو وازع ديني لزرعهم معنا في زنزاناتنا على أمل كسر تماسكنا حسب تفكيرهم، إضافة إلى الحصول على عيون وآذان وأشية، لم تكن الطريقة ناجحة بل استطعنا تبني أولئك الأفراد على الفور وقدمنا لهم الكثير من التنازلات حتى يشعروا بالراحة بيننا، مثل إمكانية اختيار مكان النوم ومن يجاورهم، ومشاركة طعامنا معهم، أو الانعزال في زاوية خاصة بهم تعطي ترجمتها بالفرنسي: الحفاظ على القربي الخاص بهم (كوخ صغير).

نظرًا لقلة عددهم ووضعهم الاجتماعي الحرج كان الاختيار بالنسبة لهم سهلاً لأنهم سيستفيدون من الاندماج في المهجع الكبير، أبلغ الحراس الجلادون الهمجيون إدارتهم أن سجناء الحق العام المرسلون إلى مهاجع الملاحق قد تغيروا بشكل جذري من حيث النظافة والسلوك وحتى أنهم أصبحوا يواظبون على أداء الصلوات بانتظام بما في ذلك صلاة الفجر.

هذا التغيير غير المتوقع لم يكن ضمن خطط السجانين فتمت إعادتهم إلى مهاجعهم الأصلية التي غادروها قبل عشرة أيام.

تعتبر التغييرات في توزيع المساجين على الزنانات في مركز الاعتقال أمرًا شائعًا للغاية، كما أنها توفر ميزة القدرة على مقابلة أشخاص جيدين بشكل متكمم، خلال إحدى تلك التنقلات قابلت نزيلاً من باريغو، المحمدية الآن، وأخبرني عن الفظائع التي تعرض لها زميلي في الزنانة على يد حراس المخابرات، الرجل في حد ذاته كان يُدعى أحمد ب.، رفض التحدث عن ذلك ومحاولي لم يكن على اطلاع جيد، فظللت أحاول التقرب من أحمد ب.، علّه يروي

القليل لكن كان الأمر محسوما بالنسبة له: لم يعد بإمكانه أن يعيش تلك المشاهد مرة أخرى وروايتها، لأن ذلك سيحعله يسترجعها مرارًا وتكرارًا فاكتشفت من خلال كلماته حجم الإذلال الذي عاشه وعمق الجرح الذي لن يندمل إلا بوفاته.

الجانب السلي في هذه الزنارين الضيقة هو أننا نبقى طوال الوقت تحت أعين ومسامع الضباط أثناء دورياتهم وبالتالي يتمكنون في كل مرة من الإمساك بقطعة من الورق في متناول أيدينا لحفظ القرآن، أنيسنا في هذه الأماكن البالية والمظلمة، فيأتينا العقاب، كان من المفروض كتابة عبارة «القرآن حرام في سجن الشلف» على لافتة مدخل المعتقل.

لقد أدى تواتر وارتفاع سوء المعاملة إلى تحويل مكان الاحتجاز إلى مكان للقمع المنهجي، فكل تلك التجاوزات والاعتداءات لا يمكن حدوثها إلا بموافقة إدارة السجن، ربما بالنظر إلى أن هذه الفئة من الأشخاص تمثل خطرًا على سلطة العسكر حتى ولو كانوا في الحجز.

قبل أن أطوي هذا الفصل، سأذكر ما فعله حارسين، وهما: عز الدين من غليزان، والمغروس من الشلف، خلال عملية تفتيش قبل حملة القمع حيث قام الأول عن عمد بكل مصحف القرآن الكريم ليقع داخل المرحاض، والثاني كان يقترب من البوابة ليصيح بكلمات بذيئة وجمل استفزازية خلال صلاتنا المسائية الجماعية وأتذكر أنني سمعته يقول: «لا فائدة للصلاة في الليل لأن الرب نام منذ مدة».

نازية أم عنترية

في هذا الفصل، سأحدث عن الخزي والإذلال اللذين عانى منهما المواطنون ضحايا الظلم والاستبداد، وبحكم تجربتي الشخصية لم يعد بإمكانني تحمل أن يتم دفن ونسيان معاناة الآخرين.

هناك الكثير من الرجال الذين عاشوا مأساتهم بعيدا عن مجرى الحياة وتجرّعوا مرارة المعاناة بين أربعة جدران وخارجها في وحدة تامة وصمت قاتل دون أن ينبسوا ببنت شفة مستسلمين لمصيرهم.

أعتقد أن الوقت قد حان لإعادة سرد تلك الأحداث وصياغتها في الحاضر لإدانة الجناة، والأهم من ذلك إعطاء الضحايا إمكانية إيجاد سلام داخلي.

أود أن أتحدث إليكم بإيجاز عن بعض الحالات التي ستفصح قضاة هذه الأجهزة السرية، والتي يتمثل دورها الرئيسي في القضاء على تطلعات الشعب إلى الحرية والممّولة سنوياً بسبائك من الذهب الخالص الممكن تسويقها في ساحة بورسعيد - السكوار -.

الهليكوبتر

شقيقنا أحمد ب.، من الغرب الجزائري، رجل مثقف وأستاذ ناشط وأحد إطارات الجبهة الإسلامية للإنقاذ، تمّ توقيفه أثناء اندلاع موجة اعتقالات المسؤولين في الحزب وهو ممتاز في التفسير النحوي واللغوي للآيات القرآنية.

على الرغم من الطابع المتحفظ والمحترم للرجل، إلا أن ما مرّ به من شتى ألوان العذاب كان على لسان جميع المساجين السياسيين.

لم يعد يروي ما حدث له لأي شخص بعد الآن فكان علي أن أجد أحد رفاقه في ما مرّ به من محن ليكون مصدرا موثوقا للقصة التي تثير الكثير من التعاطف الصادق وتفيض مزيجا من مشاعر الشفقة والتراحم.

أعادتني قصة محاورى إلى أكثر من ستين عامًا إلى الورااء فراودتني ومضات من حقبة الجزائر الفرنسية، وبالضبط عندما أُلقي الجزائريون أحياء من مروحيات حلقت فوق البحر الأبيض المتوسط.

الطغيان لا حدود له ولا إقليم أيضًا، أول مثال على ذلك ما فعلته فرنسا المستعمرة مع الجزائريين، الجنرال فرانكو مع الانفصاليين حيث يُشتبه أن المفقودين قد تم رميهم في البحر، بينوشيه وفرق الموت التابعة له في الشيلي حيث تم الاعتراف بأن المفقودين قد أُلقي بهم في البحر عن طريق أسراب الموت التابعة له في الأرجنتين.

تم توثيق الحالة التي يتم فيها إلقاء العديد من المواطنين من الطائرات في المحيط الأطلسي ونهر ريودي لا بلاتا وهم يعتبرون حتى يومنا هذا في عداد المفقودين.

كان الأخ أحمد ب.، كرجل مثقف مطلعاً على المؤلفات التي تتكلم عن ظاهرة الاختفاء القسري على يد الأنظمة العسكرية في جميع بقاع الكرة الأرضية، نجد أن أفراد الجيش أكثر ضرراً من منفعتهم لأنهم يكلفون الكثير ولا يُجدون نفعاً، هذه الحقيقة ولدت لديهم مخاوف مروعة.

تم نقل الأخ أحمد على متن طائرة هليكوبتر متوفرة لخدمة كتائب دائرة الاستعلام والأمن، وتم تقييده من قدميه بحبل طويل وتقييد يديه إلى المقعد، انتظروا أن ترتفع المروحية وتختفي عن أنظار أي مراقب ثم أطلق الجبناء يديه ودفعوه ببطء عبر الباب المنزلق ليبقى معلقاً في الهواء، إن الرجل الذي يتعرض للتعذيب بهذه الطريقة ليس محارباً أفغانياً سابقاً أو رجل عصابة متشدد ولنيم، إنه رب أسرة بسيط مسالم وغير مؤذٍ وضعيف جسدياً، على ماذا نلومه؟ حيازته للأسلحة؟ تواصل مع الأجانب؟ تشكيل جماعة مسلحة؟

لا شيء من كل ذلك، ربما خطاب مناهض للديكتاتورية أو استقبال وضيافة نشطاء من الجزائر العاصمة، لا شيء يبرر طريقته في التعذيب بواسطة الإلقاء من الهليكوبتر العزيزة على أسلافك الفرنسيين، لا شيء يسمح لك بتعليق جزائري فخور وذو كرامة من الأقدام من طائرة مروحية أثناء الطيران مع التهديد بإلقائه في البحر أو في جبال الأطلس التلي، يمكنني أن أؤكد لكم أنهم منذ ذلك الحين دمروا حياته وصحته ومعنوياته.

وحش الأوراس

إذا كنتم تتذكرون، كنت قد ذكرت في بداية هذه المذكرات فيلا أو عرين يأوي شباباً موجهاً للعمل في أجهزة المخابرات كما قيل لنا في ذلك الوقت،

شاءت الظروف في نهاية عام 1996، أن أجد نفسي أمام ابن شرعي لضابط صف كبير تم تدريبه في فيلا /عرين الشيطان أخرى تقع على مرتفعات الأبيار، شاب جزائري أصيب بصدمة جراء المأساة التي عصفت بأسرته، وُلد لأهوين من مناطق مختلفة من الجزائر: الأم من العاصمة والأب من نواحي باتنة.

كانت الأم ربة منزل نموذجية والأب متسلطاً عنيفاً ونادراً ما يكون في المنزل.

قصة مؤثرة ومثيرة للاشمئزاز.

ضابط الصف يُدعى مبروك، جاء من قرية تبعد حوالي عشرة كيلومترات من مدينة باتنة، ومثلها مثل جميع مدنها الكبيرة كانت تزوي الأوروبيين والسكان الأصليين الذين كانوا يلعبون دور تجار العبيد، وعدد قليل من السكان المحليين المتعلمين والحركي أو أبناء القياد والباشاغات الذين يعملون في الإدارة الاستعمارية، في سن العاشرة وجد نفسه يتيم الوالدين لأن الجيش الاستعماري قد دمر قريته، أما شقيقه الأكبر منه فقد التحق بصفوف المجاهدين، لذلك كان طيلة سنوات الحرب التحريرية بلا مأوى يتجول من قرية إلى أخرى.

قبل الاستقلال بقليل، كان قد انضم إلى جيش التحرير على أمل العثور على أخيه الأكبر، كانت فترة القتال هذه في صفوف المجاهدين قد زادت من قساوة قلبه وصقلت شخصيته.

بعد الاستقلال، عاد إلى منطقة الجزائر العاصمة مع مقاتلي جيش التحرير الوطني واستقر مع مجموعته في ثكنة رويسو التي تنازل عنها الجيش الفرنسي.

استوفت حالته العقلية وضعفه ووضع الاجتماعى معايير تجنيد عملاء المخابرات، قضى حياته العملية كلها في الثكنات، من عام 1962 إلى عام 1997،

فازية أم عنترية

مع فترات متقطعة قصيرة قضاها مع عائلة حاول بصعوبة كبيرة تكوينها، تزوج في الجزائر العاصمة ولديه ثلاثة أطفال.

حاول العثور على شقيقه الذي استقر بعد الاستقلال مباشرة في وسط باتنة، لكن ولسوء حظه توفي عام 1981 تاركاً وراءه أرملة وستة أطفال.

مع ظهور إرهاب (الدولة)، تطوع دون علم عائلته لقيادة ميليشيات في الشرق الجزائري، أثناء القيام بدوريات في الجبال والقرى كان يجد كل صباح جثثاً مقطوعة الرأس مرمية على حافة الطريق، لكن أولاده كانوا يظنون أن والدهم في مكان عمله المعتاد.

لم يكن على دراية أو يتظاهر بالتجاهل أن سمعته كمجرم، التي يمكن مقارنتها بسمعة المجرمين شنقريحة ومجاهد، قد وصلت إلى مسقط رأسه واستمرت في الانتشار إلى قرى أخرى حتى وصلت إلى مدينة باتنة.

كانت زوجته في الجزائر العاصمة قد سمعت ما يُقال عنه فاستجوبته عند عودته لأول مرة إلى منزل الأسرة، اعترف بكل شيء، بحجة قيامه بعمله كمسكري فقط فحدث الانفصال ولم يعد إلى منزله منذ ذلك الحين.

بعد تركه لمنزل العائلة انتقل إلى باتنة لزيارة أبناء أخيه الذين كانوا حينها بالغين فرحبوا به رغم نقاشاته الاستفزازية والسلطوية.

بعد ساعتين أو ثلاث ساعات عند خروجه من المنزل وبينما كان متوجهاً إلى سيارته على بعد بضعة بنايات، اقترب منه شاب يخفي محشوشة (رشاش) في محفظة وفتح النار عليه، كسر صوت تفجيرين الصمت وانفجرت معدته إلى أشلاء

وسقط على ركبته سابحا في بركة من الدماء، ثلاثين ثانية كانت كافية ليختفي المارة من جميع الأزقة المحيطة.

وصلت سيارة إسعاف إلى مكان الحادث ونقل الرجل إلى المستشفى ثم تم تحويله إلى مستشفى عين العجة العسكري حيث تم ترقيعه ووضعته على قدميه مرة أخرى، لم يتعلم أي درس مما عاشه وعاد طواعية إلى باتنة لتسوية الحسابات بالتأكيد.

بعد أن تم تعيينه في باتنة بدأ بزرع الموت في كل مكان، كان على رأس مجموعة يُمَشِّط كل يوم جزءاً من جبال الأوراس ويُعدم أي شخص يواجهه في طريقه، في كل مرة كان ينزل إلى أقرب ساحة عمومية لعرض رؤوس ملتحية مقطوعة بأسلحة بيضاء مثل غنائم حرب.

بعدها جاء ذلك اليوم الشنيع من شهر كانون الأول 1996 عندها تجاوز مبروك الخط الفاصل بين الإنسان والحيوان حين قرر الاعتداء على أبناء أخيه وهم آخر الناجين من سلالة.

في وقت متأخر من تلك الليلة، وعلى رأس مجموعة صغيرة من العسكريين الذين أخفوا وجوههم خلف لثام، داهم أرملة شقيقه لبحث عن أكبر اثنين من أبناء أخيه، جرّهم نحو الطريق العام وعلى بعد مائة متر قطع رؤوسهم على طريقة «الإرهابيين» متجاهلاً توسلات الأم التي كانت تذكره: «يا مبروك، تعرفت عليك، تعرفت عليك». «يا مبروك، هؤلاء أبناء أخيك، أبناء أخيك، ألا تفهم؟»

داخل ذلك الجسد البشري القاسي مات الإنسان ولم يتبقى سوى الحيوان.

أنهى راوي قصة مبروك وهو ابنه الأكبر الحكاية دون أن يذرف أي دموع قائلاً: «مات كالكلب في شهر رمضان 1997 عندما كان ذاهباً لشراء السمّة (تبغ مُمضغ)، صدمته مركبة عسكرية فتدحرج رأسه نحو عشرين متراً وسقط جسده على قارعة الطريق، لم يلاحظ أحد غيابه حتى الصباح».

لقد تشاركت الحزن مع الرجل الذي كان يروي لي قصته لكنني لم أشعر بأي تعاطف مع الحيوان الذي دهسه زملاؤه.

انتقام أفراد الحواجز المزيفة:

يلقي هذا العنوان الضوء على الحواجز التي كان يتعين على المواطنين عبورها كل يوم، يمكن التعرف على الحواجز الرسمية من خلال الزي الرسمي الذي يرتديه رجال الشرطة والدرك وكذا المركبات التي يستخدمونها، الحواجز المزيفة كانت من صنع جماعات مسلحة يرتدون ملابس إسلامية والتي تكون قوة عتادها وعدادها متواضعة ويمكن رؤيتها بالعين المجردة.

الحواجز المزيفة الحقيقية هي من صنع رجال ملتحين بملابس إسلامية يتمتعون بعتاد ثقيل وكبير يسمح لهم بارتكاب جرائم ومذابح جماعية في القرى المعزولة دون حساب أو عقاب.

لدى الضابط مبروك والسجين الفار من لامبيز العم سعيد ت.، تشابه في التصرفات وردود الأفعال فكلاهما عانى من تدهور نفسي حاد أخرجهما من الوضع الطبيعي إلى الوضع الإجرامي وكلاهما عاش أحداثاً في الماضي البعيد أثرت على نفسيته وتركت آثاراً مروعة.

نعلم أن الأول قد عانى في طفولته من فقدان والديه الذين يمثلان لأي طفل في
سنة الحماية والأمن وهو ما أضحى كل هذه الاضطرابات النفسية التي كانت سببا
في دفع غريزته الإجرامية القوية.

أما العم سعيد ت.، ترعرع في بيئته الطبيعية مثل جميع الأطفال حتى سن
الرشد، لكن التحاورات اللاإسائية لأبائه، عيلة (سابقا عترة) جعلت منه رجلا
ملينا بمشاعر طبيعية فتحول إلى كائن متعطش للإجرام تدفعه غريزة الانتقام
المرتبطة بمعاناته الحديثة.

العم سعيد ت.، هو أحد الناجين من مركز عيلة (عترة سابقا) وسجين فار من
لامبيز انضم طوعا إلى جبهة القتال لإشباع تعطشه للانتقام.

لن أذهب إلى حد الحديث بالتفصيل عن الأعمال المسلحة التي شارك فيها
لكن ذلك الأب، الذي لم يكن حتى ناشطا في الجبهة الإسلامية للإنقاذ، انخر
بالصدفة إلى دوامة العنف التي أطلقها قادة طاعارين المتعطشون للدماء.

أثناء إقامتنا في لامبيز كان يتساءل دائما عما إذا كان بإمكانه حقاً العيش لفترة
طويلة وبما فيه الكفاية، كنت أعلم أنه يحمل في داخله شعورا انتقاميا كنا نتشاركه
جميعا، لكن فائض ذلك الشعور جعله يفقد السيطرة على نفسه وأفكاره إلى
الأبد، لأن ما جس الانتقام غير قابل للشفاء.

كانت والدتي رحمها الله، التي دعمت والدي أثناء الاحتلال الفرنسي
ودعمتني أيضا ضد المحتلين الجدد لعام 1992، مسؤولة عن ضمان التواصل مع
العم سعيد ت.، الذي كان يعلمني بانتظام عن أخباره حتى وفاته عام 1997 في
جبال تابلاط.

نازية أم عنصرية

حتى ظروف وفاته تعتبر وصمة عار على هذا الجيش الذي يجروا رجاله على إعلان أنفسهم ورثة جيش التحرير الوطني، يا له من عار أن تطلق قذيفة آربي. جي على رجل يحمل مسدسًا ولجأ إلى كهف! أي ضابط تعلم مبادئ وشروط احترام كرامة الإنسان كان سيفكر في كيفية ومحاولة إنقاذ حياته.

الضباط المتخرجون من المدارس العسكرية جميعهم من ذوي المستوى الفكري المتوسط، فهم ضعفاء ينضمون إلى الجيش من منطلق الانتهازية أو لاستكمال نفوذ أحد الوالدين أو الأسرة، فلا أحد ينضم إلى الجيش من منطلق حب المهنة أو عن اقتناع.

وإلا كيف نفسر كل هؤلاء الجنرالات المعينين في المخابرات الذين يستخدمون المخبرين ووسائل إعلامهم طوال الوقت لنشر الكراهية بين الجزائريين؟ هذه الكراهية سواء كانت عرقية أو أيديولوجية أو سياسية أو حتى إقليمية فهناك رجال مدربون لإتمام هذه المهمة، إنهم قساة يشعرون بأنهم مكلفون بإبادة فئة أيديولوجية من الجزائريين كما حدث خلال العشرية الحمراء، والتي يحب المثقفون، مثل هذا الأستاذ الجامعي وغيره، أن يسموها اليوم تطهيرًا عرقيًا على الرغم من أن والديهم كانوا يشغلون مناصب في صفوف رجال ميليشيا خالد نزار.

العم سعيد ت. الذي تعرض للتعذيب عند عبلة (عنتر سابقًا) انضم بعد هروبه إلى مجموعة حسن خطاب منذ البداية وعمل بإرادته في الحواجز المزيقة والاشتباكات على محور بومرداس - تابلاط - البليدة.

إن الأعمال المسلحة التي قام بها العم سعيد ت.، كما وصفتها والدتي، تتناسب تمامًا مع مواصفات مجرم مختل عقليًا.

كان يروي لكل من يريد سماعه أن عناصر جميع السلك العسكري التي يتم القبض عليهم في الحواجز المزيفة كانوا يخضعون لسلطته، من ناحية أقسم أنه لم يعدم أي شخص إذا لم يكن متأكدا من هويته، لكنه من ناحية أخرى، لم يستثن أيًا من أولئك الذين تبين أنهم عملاء في المخابرات أو مساعدين لهم.

الأعمال المسلحة أثناء الكمائن والحواجز المزيفة والاشتباكات والاعتداء على القوافل العسكرية وعمليات التمشيط، هناك أيضًا أقسم على أنه وبمجموعته لم يهاجموا أبدًا الخط الأمامي للجنود المشاركين في العملية خلال عملية التمشيط، لأنهم يعلمون أنهم كانوا شباب الخدمة العسكرية تم استدعاؤهم لاستخدامهم في المقدمة تحت غطاء طرد الجماعات المسلحة من منطقة معينة، فأطفالنا الذين تم استدعاؤهم للخدمة الوطنية خلال تلك الفترة كانوا يستخدمون فقط كطعم ودرع لحماية القادة.

لقد أخبر والدتي في أواخر عام 1996 أن وقت موته قد اقترب وعبر عن مدى فخره لأنه غسل الإهانة والإذلال اللذين عاناهما في بن عكنون على يد عملاء عبلة (عنتر سابقاً).

فرق الموت

الملياني الناجي بأعجوبة:

«فرق الموت بشكل عام هي منظمات سرية وغير نظامية وغالبًا ما تكون شبه عسكرية، تنفذ عمليات قتل خارج نطاق القضاء وأعمال عنف أخرى (التعذيب والاغتصاب والقتل والختطف وما إلى ذلك) ضد أفراد أو مجموعات محددة بوضوح».

التعريف قام به البروفيسور بروس كامبل، المشارك في تأليف كتاب «فرق الموت بمنظور شامل: القتل مع الإنكار».

هذا أمر معروف أن فرق الموت هي مجموعات مسلحة شكلها الجيش والشرطة في كل الأنظمة الديكتاتورية، تهدف هذه المجموعات غير الرسمية المرتبطة بالدولة إلى نشر القمع السياسي والإرهاب الجسدي، مهمتهم الرئيسية هي إبادة أو القضاء على المواطنين محددين من قبل أجهزة أمن الدولة، حيث يختطفونهم من منازلهم ليلاً ثم يعدمونهم ويتهمون الجماعات الإسلامية بهذه الأعمال الإجرامية.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

سأورد في هذه المذكرات شهادتين حول هذا الموضوع، واحدة في عام 1995 لمواطن شاب نجا بأعجوبة من قطع رأسه على أيدي «مجموعات مسلحة» غير نظامية تمثل دولة الليل الموازية، في الماضي غير البعيد تم تشكيل فرق مشابهة في دول أمريكا اللاتينية من قبل السلطات التي تحكمها المجالس العسكرية ووضعوها على رأسها عسكريين متقاعدين.

كان هذا الشاب من سكان خميس مليانة وكان الناجي الوحيد من الموت بمحض الصدفة، كان يعيش مع والديه في عمر الثامنة والعشرين، في إحدى الليالي الممطرة حوالي الساعة 11 مساءً، بينما كانت الأسرة بأكملها لا تزال مستيقظة، طرق أحدهم بهدوء على باب شقتهم، فتح والده الباب دون تساؤل معتقداً أنه الجار المجاور ليجد قبالة مجموعة مسلحة أخفى أفرادها وجوههم وراء الألثة، جميعهم كانوا ملتحين ويرتدون القشاييات والأحذية الرياضية مدججين بالأسلحة.

بعد لحظة من التردد استأنف قصته:

«قدموا أنفسهم على أنهم دولة الليل وسألوا عني، ثم بدأوا في تفتيش الغرف، اقتحم اثنان منهم غرفتي وأخذوني من ذراعي وسحبوني إلى خارج المبنى.

بمجرد الخروج ألقوا بي في مؤخرة مركبة عسكرية مظلمة بلا نوافذ، كان هناك بالفعل ستة شبان من الحي الذي أسكن فيه، جميعهم في سني وكانوا يرتادون المسجد الوحيد في المنطقة، تابعوا جولتهم في الحي لمدة ساعة على الأكثر فأضافوا ثلاثة شبان آخرين كنت أعرفهم.

فرق الموت

بما أنّ العدد قد اكتمل استأنفت المركبة الثقيلة رحلتها، مشينا حوالي عشر دقائق ثم توقفت السيارة، لحظات صمت طويلة قبل فتح الباب الخلفي للسيارة، كانت أيدينا مكبلّة والأعين معصبة حين تمّ الإلقاء بنا في أسفل زنزانة كبيرة، كان المكان ثكنة فرقة الدرك الوطني لخميس مليانة وعرفته لأنني كنت معتادا على الذهاب إليه».

هؤلاء الشباب الذين تم اختطافهم من منازلهم ظلّوا بلا حركة في الظلام الدامس، رؤوسهم على الركب خائفين من نفس المصير الذي لاقاه من سبقوهم. أخبرني محوري وزميلي في الزنزانة بالتفصيل كيف حدثت له المعجزة التي أبقتة على قيد الحياة، ثم توقف فجأة ونظر إليّ معتقدا أنني لست مهتما فطمأنته قائلا: «لا، لا، استمر، كلّ آذان صاغية ولا أطيق الانتظار حتى أسمع النهاية».

فتابع على النحو التالي:

«بينما كانت الأحاديث تدور بشكل جيد في الخارج، أراد دركي فضولي أن يرى رؤوس الجثث المستقبلية، ففتح الزنزانة وأشعل مصباحه اليدوي ليُنير الوجوه واحدا تلو الآخر، وعندما وصل إلي توقف ورفع العصا ببطء عن عيني، لقد كنت أنا، ابن عمه».

ثم واصل قصته:

«دون أن يفقد أعصابه، أخذني من يدي وأعاد مصباحه في جيبه، ونقلني مُستعجلا إلى زنزانة أخرى».

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

توقف عن الكلام فقد خنفته دموع لم يستطيع كبحها، ثم تنفس بعمق واستأنف قصته مرة أخرى قائلاً: «قبل الفجر بقليل، عادت المركبة العسكرية لاستعادة حمولتها البشرية التي تم إيداعها قبل فترة وجيزة».

وأضاف أنه في الصباح، حوالي الساعة العاشرة، جاءت سيارة درك أخرى لتقودنا إلى المحكمة حيث تم عرضنا على المدعي العام ووجهت إلينا تهمة مُفبركة، ونحن محتجزون في سجن خميس مليانة».

لمدة أسبوعين، كان الحداد والحزن يسيطران على والديه فلم يكن هناك ما يشير إلى مكان تواجد ابنهما لأنه كان الوحيد المفقود من المجموعة.

تم العثور على رفاقه الذين اختطفوا معه في تلك الليلة بعد أن تم ذبحهم وتقطيعهم ورميهم في ذلك الصباح على بعد كيلومتر واحد من البلدة في الخنادق على جانب الطريق.

خلاصة القول إن هذه القضية دليل ممتاز على أن الجماعات المسلحة التي أحدثت الفوضى في مدتنا وقرانا كانت من صنع الدولة بشكل مباشر.

إن التنسيق بين فرق الموت والدرك والشرطة يثبت أن هذه المنظمة الإجرامية المكلفة بزراعة راحة المجتمع واستقراره من خلال الإرهاب تعمل وتنشط تحت رقابة المخابرات ودائرة الاستعلام والأمن.

الإخوة المزيّفون:

الشهادة الثانية هي شهادتي الشخصية وهي تكشف التورط المباشر لرجال المؤسسة العسكرية في الجبال.

بعد إطلاق سراحى في نهاية عام 1997، على الرغم من تناوب المخبرين أمام منزلي والتنصت على الهاتف، تمكنت من الاتصال بأصدقائي الذين كانوا لا يزالون في الجبال آنذاك وهم الآن قد قابلوا الرفيق الأعلى.

مستغلاً حدوث وفاة في العائلة في منطقة القبائل، بقيت لمدة أربعة أيام بعيداً عن منزلي دون إثارة شكوك الجيران، نعم، جيرانى منذ أربعين عاماً ومخبرون في الخدمة.

قبل الفجر بوقت قصير، ظهر الرجل المسؤول عن مرافقتي إلى معارفي الذين كانوا لا يزالون نشطين في الجبال وقدم نفسه لسائق السيارة المستأجرة كما هو متفق عليه، كان علينا أن نقطع مسافة 180 كيلومتراً قبل أن نصل إلى النقطة المحددة للالتقاء مع المرشد قبل الساعة 8 صباحاً.

كان يوم السوق في هذه المدينة الصغيرة، كان رجالنا في الجبال يقومون بتجارة مربحة، لا يمكنكم تصوّر ذلك أبداً، لا قنب هندي ولا كوكاين بل اللحوم بأسعار مناسبة لجميع الميزانيات.

وصلنا إلى وجهتنا، التقينا بالمرشد، شاب في الثلاثين من عمره بدا لي في حالة بدنية جيدة، دعانا إلى المقهى، كان بداخله مجموعة من ثمانية أشخاص حول طاولة، أربعة متفرجين وأربعة لاعبين دومينو، جلسنا بجانبهم، وكأن شيئاً لم يحدث حيث واصلوا اللعب، بينما هو واقفاً بزاوية تطل على الغرفة بأكملها وبدأ في الكلام وعينيه لا تحيدان عن المدخل، أعطانا تعليماته، كان يكرر كل تعليمة مرتين إلى ثلاث مرات، استمر لعب الدومينو وهو غادر المقهى أولاً.

ربيع الإرهاب في الجزائر - شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

الآن كان علينا اتباع التعليمات حرفياً حيث سنخلى المكان بالترتيب المتفق عليه: أنا وسائق التاكسي سنغادر المقهى، بعده بعشر دقائق يتوجب على لاعبي الدومينو إنهاء اللعبة ودفع ثمن مشروباتهم ثم الخروج، بقية المجموعة ستلتحق بنا وفقاً للتعليمات المقدمة.

إن رغبتني في الانضمام إلى الجماعات في الجبال ليست بأي حال من الأحوال بدافع استئناف الخدمة، حتى لو كانت الرغبة في الانتقام متواجدة وستظل طوال حياتي لأنه الشعور السائد في كياني كله، لم تستطع فقط روحي الحساسة أن تعترف بأن الرجال المليئين بالسخط والتواضع والشهامة يمكن أن يرتكبوا جرائم ضد شعبهم، ضد الأبرياء والمعوزين والفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة.

لقد تعهدت بأن أقدم لهم دعمي الثابت حتى نهاية أيامي لكنني أردت تهدئة المخاوف بشأن شرعية أفعالهم، أردت أن أرى بأم عيني وأسمع ذلك شخصياً.

كانت نقطة الالتقاء المحددة على بعد 20 كيلومتراً، وكانت التعليمات هي ركوب كل مجموعة لسيارة أجرة كل عشرين دقيقة، التقينا جميعاً في نفس المكان حوالي الساعة الثانية ظهراً، توقفنا عند منزل عائلة عند سفح الجبل مضيافة جداً، قدموا لنا وجبة مشبعة من الكسرة واللبن والتمر.

كان في انتظارنا طريق طويل عبر ممرات وعرة شديدة الانحدار على امتداد عشرة كيلومترات - تقريباً - من التسلق، كان الانطلاق مقرراً عند نهاية اليوم.

بعد ثلاث ساعات وصلنا إلى هدفنا، وجدنا الإخوة الذين لم نرهم منذ سنوات باقين هناك، رحبوا بنا بحرارة وحضروا وليمة كبيرة على شرفنا.

أمضينا يومين وثلاث ليال في المخيم، لم نناقش شيئاً سوى المذابح والقتل الجماعي المنسوب إلى الجماعات الإسلامية كما أعربت عن مخاوفي وطالبت بإجابات لا لبس فيها، حينها تم عقد اجتماع صغير حول طاولة شاي مع الأعضاء الأكبر سنًا في المجموعة الذين لن أذكر أسماءهم لأسباب أمنية.

كانت الإجابات والحجج المقدمة مقنعة جدًا بل أكثر من ذلك حين أيدوا كلامهم بالأدلة المادية وبصراحة شعرت بارتياح شديد خاصة عندما علمت أن الجماعة المسلحة، مرتكبة المجازر في هذه المنطقة، قد استقرت على مسافة كيلومتر واحد تحتنا، وأن عناصرها يفرون منها بأسلحتهم نحو الجماعة الإسلامية الحقيقية عندما تسنح لهم الفرصة.

أجريت مقابلة مع آخر هارب منها كان لا يزال مصابا في ساقه من قبل ملاحظيه فأخبرني أن معظم عناصر المجموعة مشتبه بهم وأن شبابًا مثله قد انضموا إليها من خلال مجندين في الأحياء، لكن بعد وصولهم أدركوا أنهم ارتكبوا أكبر خطأ في حياتهم، تمكن البعض من الفرار بينما قُتل آخرون بالرصاص أثناء فرارهم.

كان الهدف من وجودهم في هذه الجبال ترويع وترهيب السكان المشتبه في دعمهم لجماعات إرهابية أخرى.

«أحيانًا كان يتم إعطاء التعليمات للأمرء، وهم خمسة جميعهم مزودون بأجهزة اتصال لاسلكي، عند حدوث ذلك تتعرض قرية أو مجموعة من الناس للهجوم، في البداية كنت متورطًا في ما اعتقدت أنه أمر مشروع لكن في النهاية أدركت أنها خدعة لذلك قررت أن أهرب، وها أنا مع إخوتي الذين ساعدوا وعالجوا إصابات ساقى».

سألته سؤالا آخرًا: «من هم؟» فأجاب: «جماعة مسلحة لا تختبئ، لا تأخذ الحيلة في تحركاتها، تشعل النار ليلا لتدفئة نفسها، وتحصل على المعلبات والجبن، ولا تعمل إلا في الليل، فهذا يعني أنها ليست غربية عن الدولة أو الجيش».

لكنني بقيت أشعر بالفضول لرؤية وجود هذه المجموعة ومعسكرها بأم عيني فسألت إذا كان بإمكانني المجازفة بالذهاب لمراقبة إرهابيي الدولة هؤلاء، وإذا كان بالإمكان إرسال اثنين من المقاتلين معي فقبل الأمير، الذي كان رجلا طاعنا في السن، طلبي.

في اليوم التالي وبعد صلاة الفجر انطلقنا نزولاً إلى معسكرهم، حينها لاحظت بنفسي الفرق بين المعسكرين فالنظافة والنظام غير موجودين بتاتا في معسكر إرهابيي الدولة، كانت نار المخيم لا تزال مشتعلة والجميع نيام إلا واحداً من الأمراء الخمسة الذي كان يقوم بجولة مراقبة خوفاً من أن يقل عددهم بفرار من لم يقتنعوا بقتل الأبرياء في ظلمة الليل، لا يوجد حراس ولا إجراءات أمنية لأنهم كانوا في اطمئنان تام، كان هذا كافياً بالنسبة لي ولم يبق في ذهني أي شكوك.

في تلك الليلة ناداني الأمير إلى خيمته لأستمع إلى المحادثات الفظة والدينية التي كانت تدور بين رجال الدرك وشرطة المدينة مع إرهابيي الدولة.

في اليوم الثالث تركنا المخيم في الصباح الباكر باتجاه المدينة وتمت مرافقتنا حتى الطريق الوطني.

جرائم الأصول:

العديد من الجرائم الإجرامية كانت تساند العسكريين وكلما كانت تفاصيل مرعبة حول أساليب التعذيب في أروقة مكاتب المخابرات تنتشر كلما كان الخبر في وسائل إعلام النظام يسيل لإفراغ حقد كبير تجاه تلك الفئة من الجزائريين التي وضعها النظام العسكري في فوهة المدفع، على رأسها جريدة «ليبارتي» التي كان يمولها الملياردير يسعد ربراب.

ومن أجل توضيح الدور المباشر لرجل الأعمال في إراقة دماء الأبرياء، هو تقديمه لمصالح المخابرات لعدد من عماله الذين تم تدريبهم بسرعة كبيرة وتسليحهم وتنصيبهم كحراس شخصيين للإطارات السياسية في تلك المنطقة.

كان أحد العاصمين يُدعى سعيد ر. يعمل لصالح يسعد ربراب في العاصمة، كان أبا لثلاثة أطفال هادئا وساكنًا يعيش مع والديه لعدم حصوله على سكن وبما أنهم وعدوه بالحصول على شقة في الأيام القادمة قبل بالعمل المطلوب منه.

كان ابنه شابا في التاسعة عشر من عمره يُدعى طارق ر.، له صلات مع مجموعة سيد أحمد مراد المعروف بالاسم المستعار «جعفر الأفغاني»، لم يتقبل نهج والده لأن الصغار غير قادرين على ترجمة الشغل الشاغل للوالدين: وضع سقف مريح فوق رؤوس أبنائهم مهما كلف الأمر وبأي طريقة كانت.

في كل مساء كان الأب والابن يتجادلان حول نفس الموضوع، يريد طارق من والده أن يعيد هذا السلاح الذي يضع حياته في خطر فهو يخاف عليه لأنه كان وسط الجماعات ويعرف معايير العدو والمواطن المحايد لديها.

كان الأب ينزعج من إصرار ابنه فنهض ذات مساء في منتصف العشاء وأخرج مسدسه الماغنوم، وهو سلاح يدوي مخيف، وهدد طفله قائلاً: «كلمة أخرى وسأقتلك كالكلب، أعلم أنك إرهابي، هيا، اتركني وشائي».

وصل الأمر إلى نقطة الانفجار، ضدم الابن فنهض ودمه يفور وغادر الطاولة ولم يعد أبداً... حياً.

تم استهداف والد طارق ر.، من قبل الجماعات المسلحة المحلية لحمله طوعاً سلاحاً، ولكن نظراً للخلاف بين الأب والابن تم غض النظر عن القضية مؤقتاً.

في صباح أحد الأيام، مر سعيد ر.، كالعادة إلى البقال لشراء أكياس الحليب التي يأخذها إلى المنزل قبل أن يغادر إلى العمل، وبينما صعد إلى سيارة الشركة التي قدمها له الملياردير شريك شقيقة توفيق مدين، رأى ابنه يقترب منه فجلس على المقعد تاركاً باب السيارة مفتوحاً لي شحن المسدس برصاصة بكل هدوء، لاحظ الشاب مناورة أبيه فتأرجع قليلاً إلى اليسار لتفادي زاوية التصويب إذا حدث ذلك بالفعل.

سيطر الخوف على الرجلين. من سيؤدي ردة الفعل أولاً، الأب أم الابن؟

كان الناس يراقبون المشهد الذي بدا تافهاً بالنسبة لهم، فهم لم يكونوا على علم بأن مأساة على وشك الحدوث.

قام الأب الذي كان غير قادر على التحكم في أعصابه بحركة مفاجئة بسلاحه فتم سماع صوت طلقتين تشقّ صمت الصباح، بعدها استدار الابن ومشى في الاتجاه الآخر، سقط الأب على المقعد مردّياً ووجهه مغطى بالدماء.

حتى يومنا هذا لا أحد يعرف من أطلق النار، هل هو الابن أو شخص ثالث.

سأحاول في هذا الجزء من الكتاب أن أصف المشاهد التي أنزلت مرتكبيها إلى الوحشية، مشاهد لم يجرؤ الجلادون الستالينيون على ارتكابها في معسكراتهم، مشاهد لم يجرؤ جيش بيجار على تطبيقها في حربه على الجزائري، مشاهد لم يجرؤ عليها حتى هتلر النازي في معسكرات الاعتقال، مشاهد تعدت الفرق الزارية ارتكابها على المواطنين الجزائريين.

الضحيتان، شقيق وشقيقته، لن أذكر أسماءهما في هذا الكتاب لكنني سمعت لنفسي بسرد قصتهما دون إخطارهما مسبقاً، مشهد من التعذيب لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، أو لم يتم الكشف عنه علانية.

في صفوف مؤسسات القمع والجيش والدرك والشرطة الجزائرية هذه، تم تدمير نفسية الإنسان بالكامل أو فقدها إلى الأبد، تغيرت مشاعرهم الطبيعية تماماً مع انتشار التعذيب الممنهج، وشيئاً فشيئاً انتقلوا من إنسان إلى حيوان.

أفهم تماماً صمت الضحايا وأوافقهم الرأي، علاوة على ذلك وبعد سنوات عديدة، هل سيكون لديهم القوة لرواية مشاهد لا تطاق من الناحية البشرية؟ هل سيكونون قادرين على ربط الأحداث والأفكار والمشاعر كما مروا بها وفكروا بها وشعروا بها حينها؟ بالتأكيد أمر مستحيل، لكن لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك أفضل منهم.

ستكون الكلمات غير كافية بالتأكيد والقصة ناقصة كذلك لكنني سأظل أحاول أن أستذكر الرعب الذي لا يمكن تصويره والذي عانى منه الأخ وأخته، دون تعليقات ودون تحميل النص بمشاعري الشخصية.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

كيف يشعر الرجل، بالمعنى الحقيقي للكلمة، المتدين والمثقف جداً عندما يضطر إلى النظر إلى أخته الصغرى عارية مماماً محاطة بحشالة تنهش بشديها وعورتها؟

كيف تشعر فتاة من أسرة طيبة وهي تشاهد شقيقها الأكبر وهو يُجرد من ملابسه ويتعرض للتعذيب من أعضائه التناسلية والاعتداء الجنسي عليه؟

هل سيتمكن العلماء يوماً من وصف الظروف والزمان الذي يمكن فيه للرجل أن يتخلى عن صفاته البشرية لدرجة مصادرة طبيعته البشرية؟

كيف يمكن أن يتصرف المرء إذا تعرض أخ وأخت عاريان مماماً للتعذيب جنسياً إلى جنب على نفس المقعد أمام عشرات الضباط المفترض أنهم حُماة على سلامة وأمن الشعب؟

منتهى الرعب المفزز الذي لم يحدث في أوشفيتز لكنه حدث بالفعل بين عملاء دائرة الاستعلام والأمن الجزائرية: بلغوا قمة الهذيان حين قاموا بربط الضحيتين العاريتين وجهاً لوجه، عورة مقابل عورة عن طريق لف حبل طويل حول جسديهما من الرقبة إلى الركبتين لساعات طويلة.

تخيل كم من الوقت يمكن لشخص، رجلاً كان أو امرأة، أن يتحمل ذلك مع استمرار هذيانهم الجماعي غير المحدود لإظهار جميع جوانب الانحراف والسادية المنتشرة في مؤسسات الدولة هذه.

ثم ارتكبوا أكثر الأعمال مهينة باغتصابهم جماعياً امرأة شابة أمام شقيقها الذي أُجبر على مشاهدة شذوذهم الجنسي.

قبو فرانكنشتاين:

لقد قلت في البداية أنني سأعود إلى رحلة قمت بها بين 10 و 12 يناير 1994، لا أتذكر جيدًا بعد 26 عامًا من ذلك التاريخ، ومع ذلك أسترجع أنني وضعت في سيارة وعيناي معصوبتان واليدين مكبلتين وراء ظهري وخرجنا في وضع النهار، كما نسير ببطء فشعرت بحركة مرور في وسط المدينة، بعد ساعة من السير توقفنا عند بوابة أفترض أنها بوابة حديدية ثقيلة من الصرير الذي تصدره عند الفتح.

أمسكوني من الذراعين عميل على اليمين وآخر على اليسار وسرنا بشكل مستقيم لمسافة 30 مترًا ثم دخلنا رواقًا مظلمًا وباردًا.

نزعوا العصاية عن عيني وحرروا يدي اليمنى، واحد منهم أضاء بمصباحه المكان وأشار إلى طاولة بها جسم مغطى بقطعة من البلاستيك الأسود، اقتربت وأزلت البلاستيك فظهر رأس بشري مشوه، أمسكت به من أذنيه لكن جلد الوجه انزلق إلى الأعلى، حتى لو كان صديقًا فلن أتمكن من التعرف عليه أبدًا، ومع ذلك فقد بذلت قصارى جهدي لفعل ذلك.

نظرت فوق كتفي فقال لي أحدهم:

- هل تعرفه؟

- لا، لا أعرفه.

- إنه من نفس حيك.

- إنه مشوه، لا يمكنني التعرف عليه.

ربيع الإرهاب في الجزائر... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

ثم أدار شعاع الضوء نحو الحائط خلفي وأضاف:

- سوف ينتهي بكم الأمر جميعاً هنا أيها الإرهابيون».

كانت هناك هياكل بشرية متكئة على الحائط، بعضها واقف بشكل مستقيم والبعض الآخر يميل إلى اليمين أو اليسار، هل كانوا أحياء أم أموات؟ الله وحده من يعلم.

هل يوجد بلد في تاريخ البشرية يعامل أبناءه بمثل هذا الإجرام؟

لقد اختارت الطغمة العسكرية خلق مناخ من الإرهاب، ولعب رجالها، الذين من المفترض أن يخدموا الأمن القومي، دور المافيا والبلطجية، وأطلقوا العنان لفائض من العنف السادي والوحشي.

تذكرني هذه الأحداث بالسبب وراء إقسام رجل دركي معروف لدى الجزائريين باسم بولفراد في وقت من الأوقات على قتل أي عنصر من قوات الأمن يجده في طريقه.

خاتمة

ما هو المبرر لكتابة هذه المذكرات؟ إنها الحاجة الماسة إلى إعادة المؤسسة العسكرية إلى مكانها الطبيعي في المجتمع والتي أحكمت قبضتها منذ الاستقلال بقوة السلاح على سلطات الدولة الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

بعد أحداث عام 1988 زاد الانفتاح الديمقراطي قصير الأمد من دائرة تدخلها في سياسة البلاد، ووصل على مر السنين إلى أبعاد مقلقة بسطت سيطرتها على جميع موارد البلاد الوفيرة من خلال الحيل وتوجيه الثروات بشكل قانوني إلى كبار الضباط من خلال مؤسساتهم أو أنشطة مرتبطة بالجيش.

وهل يمكن أن يؤدي وجود أمن عسكري في هذه الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية إلى صدام مع نظام ديمقراطي؟

أنا لست أفضل من يمكنه التأكيد على الحاجة إلى أجهزة الأمن والاستخبارات -حتى لو توجب أن تعمل في سرية- بشرط أن تكون على قدر المسؤولية وتحت المراقبة وخاضعة للمساءلة عن جميع أنشطتها، وهذا ما ليس متاحا بعد في الجزائر.

تتمتع مخبراتنا السرية بالفعل بسمعة طيبة بين نظيراتها الفرنسية والأمريكية والبريطانية... إلخ. لقد اكتسبت سمعة زائفة لأنها تجهل أن وكالات الاستخبارات الأجنبية هذه، والتي تمثل ركيزة مهمة للدفاع عن المجتمع وحرياته المدنية وقيمه المشتركة، لديها إمكانية الوصول إلى أصغر التفاصيل عن أنشطتها «السرية» التي تتمثل، حسب مفهومهم، عن عمل الشرطة السياسية الهادفة إلى القضاء على أي «نزعة إرهابية» ضد الغرب.

وهم يعرفون أيضًا أنه عبر التاريخ كان القادة في أي دولة شمولية يحكمون بقوة بوليسية سياسية تتلاعب بـ «الانتخابات الحرة» وتقبض السيطرة على مواطنيها وتقمعهم بقوة السلاح والقتل.

في كل دول العالم، الأفراد الذين يلتحقون بالتشكيلات العسكرية ليسوا أبدًا من خريجي الجامعات بل هم من المستويات الدنيا ويقومون بذلك بدافع الضرورة والحاجة، ولكن نادرًا ما يكونون بدافع حب المهنة.

نحن بحاجة ماسة إلى الاتحاد والتضامن لإنقاذ هذه الدولة - الأمة - التي يقودها نظام منحط إلى العدم وبشكل لا يمكن إصلاحه.

لأنه في الوقت الذي تمكن فيه الحراك من وضع الجزائر على المسار الصحيح وإدخالها في حقبة جديدة من دولة القانون، عادت التصرفات الاستبدادية القديمة للظهور من نفس المصادر التي لا تزال تعتقد أن لها الحق في تقرير الحياة والموت على الشعب الجزائري كله.

لكن النضال سيظل مستمرًا.

أعمر رامي، من مواليد 1954 بأرفون منطقة القبائل.

- هو أحد الناجين بعد خمس سنوات من التعذيب والإكراه البدني المستمر.
- اشتغل كمستشار توجيهي ولقي في وقت مبكر لاعتبارات أسرية.
- بعد أداء الخدمة الوطنية، وما لاحظته من تحطيم للكرامة الإنسانية، اتجه نحو تبني الأيديولوجيات المقاومة لغطرسة العسكر فبنى الفكر اليساري ثم الإسلامي المقاوم مع المجاهد مصطفى بويعللي وصولا إلى مناصرة حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ ثم توقيف المسار الانتخابي وبداية ترهيب الشعب الذي آمن بمقاومة الطغيان والظلم الذي تعرض له من طرف الأوليغارشية العسكرية كما سماها.
- اعتقل وحوكم من قبل محكمة خاصة خلال العشرية الدموية.
- وصل إلى لندن عام 1999، وأصبح ناشطا مع العديد من المنظمات الحقوقية والإنسانية، وزار العديد من الدول التي شهدت تجارب مماثلة كالتي تشهدها الجزائر.
- كاتب في العديد من المواقع الصحفية وعلى شبكات مواقع التواصل الاجتماعي، حيث سخر قلمه لفضح الأوليغارشيات المتحكمة في صناعة القرار في الجزائر، وهذا الكتاب يعتبر أول تجربة مريرة له يسرد فيه المعاناة التي عاشها والتي ما زال يلايتها جزاء حكم العسكر.

75.00 Dhs

• ربيع الأزهري في الجزائر شهداء
• Edition Al Halabi منشورات الحج / 22
• 2022-02-23 / ج-3
• 9789954731345



السعر: 75 د

